
١٩

[illegible]

1

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

الفهرس لفوائد المجلد

1 كتاب توحيد المفضل

2 كتاب الإهليلجة

3 كتاب شرح الأنبياء [illegible] قدس سره

3 كتاب في إمامة الأئمة عليهم السلام للحافظ رجب البرسي قدس سره

من كتب الفقير المحتاج إلى عفو ربه الغني [illegible] احمد هاشم محمد تقي [illegible]

[illegible] الزمان [illegible] ملك ما في السموات وما في الأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

روى محمد بن سنان قال حدثنا المفضل بن عمر قال كنت ذات يوم بعد العصر
جالسا في الروضة بين القبر والمنبر وانا مفكر فيما خص الله به سيدنا محمدا
صلعم من الشرف والفضائل وما منحه واعطاه وشرفه وحباه مما لا يعرفه
الجمهور من الامة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته وخطر مرتبته فاني
لكذلك اذ اقبل ابن ابي العوجا فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به
المجلس اذا رجل من اصحابه قد جاء فجلس اليه فتكلم ابن ابي العوجا فقال لقد بلغ
صاحب هذا القبر العز بكماله وحاز الشرف بجميع خصاله ونال الحظوة في
كل احواله فقال له صاحبه انه كان فيلسوفا ادعى المرتبة العظمى والمنزلة
الكبرى واتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول وضلت فيها الاحلام
وغاصت الالباب على طلب علمها في بحار الفكر فرجعت خاسئات
وهي حسير فلما استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء دخل
الناس في دينه افواجا فقرن اسمه باسم ناموسه فصار يهتف به
على رؤوس الصوامع في جميع البلدان والمواضع التي انتهت اليها دعوته
وعلت بها كلمته وظهرت فيها حجته برا وبحرا وسهلا وجبلا في كل
يوم وليلة خمس مرات مرددا في الاذان والاقامة ليتجدد في كل ساعة
ذكره لئلا يخمل امره وقال ابن ابي العوجا دع ذكر محمد صلعم فقد تحير فيه عقلي
وضل في امره فكري وحدثنا في ذكر الاصل الذي يمشي به ثم ذكر ابتداء الاشياء
وزعم ان ذلك باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ولا صانع له ولا مدبر بل
الاشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال
قال المفضل فلم املك نفسي غضبا وغيظا وحنقا فقلت يا عدو الله
الحدت في دين الله وانكرت الباري جل قدسه الذي خلقك في احسن تقويم
وصورك في اتم صورة ونقلك في احوالها حتى بلغ بك الى حيث انتهيت
فلو تفكرت في نفسك وصدقك لطيف حسك لوجدت دلائل

الربوبية واثار الصنعة فيك قائمة وشواهده جل وتقدس في خلقك واضحة
وبراهينه لك لائحة فقال يا هذا ان كنت من اهل الكلام كلمناك فان
ثبت لك حجة تبعناك وان لم تكن منهم فلا كلام لك وان كنت من اصحاب
جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل دليلك يجادل فينا
ولقد سمع من كلامنا اكثر مما سمعت فما افحش في خطابنا ولا تعدى في جوابنا
وانه للحليم الرزين العاقل الرصين لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق يسمع
كلامنا ويصغي الينا ويستعرف حجتنا حتى اذا استفرغنا ما عندنا وظننا
انا قد قطعناه دحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير يلزمنا به الحجة و
يقطع العذر ولا نستطيع لجوابه ردا فان كنت من اصحابه فخاطبنا بمثل
خطابه قال المفضل فخرجت من المسجد محزونا مفكرا فيما بلي به الاسلام
واهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها فدخلت على مولاي صلوات الله عليه
فرآني منكسرا فقال ما لك فاخبرته بما سمعت من الدهريين وبما رددت
عليهما فقال يا مفضل لالقين اليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس في خلق العالم
والسباع والبهائم والطير والهوام وكل ذي روح من الانعام والنبات
والشجر المثمرة وغير ذات الثمر والحبوب والبقول الماكول من ذلك وغير الماكول
ما يعتبر به المعتبرون ويسكن الى معرفته المؤمنون ويتحير فيه الملحدون فبكر
علي غدا قال المفضل فانصرفت من عنده فرحا مسرورا وطالت علي
تلك الليلة انتظارا لما وعدني به فلما اصبحت غدوت فاستؤذن لي
فدخلت وقمت بين يديه فامرني بالجلوس ثم نهض الى حجرة كان يخلو
فيها ونهضت بنهوضه فقال اتبعني فتبعته فدخل ودخلت خلفه
فجلس وجلست بين يديه فقال يا مفضل كاني بك وقد طالت عليك
تلك الليلة انتظارا لما وعدتك فقلت اجل يا مولاي فقال يا مفضل ان
الله كان ولا شيء قبله وهو باق ولا نهاية له فله الحمد على ما الهمنا وله الشكر
على ما منحنا فقد خصنا من العلوم باعلاها ومن المعالي باسناها واصطفانا
على جميع الخلق بعلمه وجعلنا مهيمنين عليهم بحكمه فقلت يا مولاي اتاذن لي
ان اكتب ما تشرحه وكنت اعددت معي ما اكتب فيه فقال لي افعل يا مفضل

ان الشكاك جهلوا الاسباب والمعاني في الخلقة وقصرت افهامهم عن تامل
الصواب والحكمة فيما ذرأ الباري جل قدسه وبرأ من صنوف خلقه في البر
والبحر والسهل والوعر فخرجوا بقصر علومهم الى الجحود وبضعف بصائرهم
الى التكذيب والعنود حتى انكروا خلق الاشياء وادعوا ان كونها بالاهمال
لا صنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر ولا صانع تعالى الله عما يصفون
وقاتلهم الله انى يؤفكون فهم في ضلالهم وعماهم وتحيرهم بمنزلة عميان دخلوا
دارا قد بنيت اتقن بناء واحسنه وفرشت باحسن الفرش وافخره واعد
فيها ضروب الاطعمة والاشربة والملابس والمآرب التي يحتاج اليها
لا يستغنى عنها ووضع كل شي من ذلك موضعه على صواب من التقدير وحكمة
من التدبير فجعلوا يترددون فيها يمينا وشمالا ويطوفون بيوتها ادبارا
واقبالا محجوبة ابصارهم عنها لا يبصرون بنية الدار وما اعد فيها وربما
عثر بعضهم بالشي الذي قد وضع موضعه واعد للحاجة اليه وهو جاهل
بالمعنى فيه ولما اعد ولماذا جعل كذلك فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها
فهذه حال هذا الصنف في انكارهم ما انكروا من امر الخلقة وثبات الصنعة
فانهم لما غيبت اذهانهم عن معرفة الاسباب والعلل في الاشياء صاروا
يجولون في هذا العالم حيارى ولا يفهمون ما هو عليه من اتقان خلقته
وحسن صنعته وصواب هيئته وربما وقف بعضهم على الشي لجهل سببه
والارب فيه فيسرع الى ذمه ووصفه بالاحالة والخطأ كالذي اقدمت عليه
المانوية الكفرة وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة واشباههم من اهل
الضلال المعللين انفسهم بالمحال فيحق على من انعم الله عليه بمعرفته وهداه
لدينه ووفقه لتامل التدبير في صنعة الخلائق والوقوف على ما خلقوا له
من لطيف التدبير وصواب التعبير بالدلالة القائمة الدالة على صانعها ان
يكثر حمد الله مولاه على ذلك ويرغب اليه في الثبات عليه والزيادة منه فانه
جل اسمه يقول لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد
يا مفضل اول العبر والادلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم وتاليف
اجزائه ونظمها على ما هي عليه فانك اذا تاملت العالم بفكرك وميزته بعقلك

وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج اليه عباده فالسماء مرفوعة كالسقف
والارض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة
كالذخائر وكل شي فيها لشانه معد والانسان كالمملك ذلك البيت والمخول
جميع ما فيه وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة في
مصالحه ومنافعه ففي هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام
وملائمة وان الخالق له واحد وهو الذي الفه ونظم بعضا الى بعض جل قدسه
تعالى جده وكرم وجهه ولا اله غيره تعالى عما يقول الجاحدون وجل وعظم عما ينتحله
الملحدون نبتدئ يا مفضل بذكر خلق الانسان فاعتبر به فاول ذلك ما
يدبر به الجنين في الرحم وهو محجوب في ظلمات ثلث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة
المشيمة حيث لا حيلة له في طلب غذاء ولا دفع اذى ولا استجلاب منفعة ولا
دفع مضرة فانه يجري اليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا
يزال ذلك غذاؤه حتى اذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي اديمه على مباشرة
الهواء وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بامه فازعجه اشد ازعاج واعنفه
حتى يولد فاذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم امه الى ثدييها
فانقلب الطعم واللون الى ضرب آخر من الغذاء وهو اشد موافقة للمولود من الدم
فيوافيه في وقت حاجته اليه فحين يولد قد تلمظ وحرك شفتيه طلبا للرضاع
فهو يجد ثديي امه كالاداوتين المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن
ما دام رطب البدن رقيق الامعاء لين الاعضاء حتى اذا تحرك واحتاج
الى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه طلعت له الطواحين من الاسنان
والاضراس ليمضغ به الطعام فيلين عليه ويسهل له اساغته فلا يزال كذلك
حتى يدرك فاذا ادرك وكان ذكرا طلع الشعر في وجهه فكان ذلك علامة
الذكر وعز الرجل الذي يخرج به من حد الصبي وشبه النساء وان كانت انثى
يبقى وجهها نقيا من الشعر ليبقى لها البهجة والنضارة التي تحرك الرجال
لما فيه دوام النسل وبقاؤه واعتبر يا مفضل فيما يدبر به الانسان في
هذه الاحوال المختلفة هل ترى يمكن ان يكون بالاهمال افرايت لو لم يجر
اليه ذلك الدم وهو في الرحم الم يكن سيذوي ويجف كما يجف النبات اذا
فقد الماء ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه الم يكن سيبقى في الرحم كالموؤود
في الارض ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته الم يكن سيموت جوعا او يتغذى

بغذاء لا يلائمه ولا يصلح عليه بدنه ولو لم تطلع عليه الاسنان في وقتها الم يكن سيمتنع
عليه مضغ الطعام واساغته او يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح
لعمل ثم كان امه تشتغل بنفسه عن تربية غيره من الاولاد ولو لم يخرج الشعر في
وجهه في وقته الم يكن سيبقى في هيئة الصبيان والنساء فلا ترى له جلالة
ولا وقارا فقال المفضل فقلت يا مولاي فقد رايت من يبقى على حالته ولا ينبت
الشعر في وجهه وان بلغ حال الكبر فقال ذلك بما قدمت ايديهم وان الله ليس
بظلام للعبيد فمن هذا الذي يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب
الا الذي انشاه خلقا بعد ان لم يكن ثم توكل له بمصلحته بعد ان كان فان كان
الاهمال ياتي بمثل هذا التدبير فقد يجب ان يكون العمد والتقدير ياتيان
بالخطا والمحال لانهما ضد الاهمال وهذا فظيع من القول وجهل من قائله لان
الاهمال لا ياتي بالصواب والتضاد لا ياتي بالنظام تعالى الله عما يقول الملحدون
علوا كبيرا ولو كان المولود يولد فهما عاقلا لانكر العالم عند ولادته ولبقي حيران
تائه العقل اذا راى ما لم يعرف وورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم
والطير من البهائم الى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم
واعتبر ذلك بان من سبي من بلد الى بلد وهو عاقل يكون كالواله الحيران ن
فلا يسرع في تعلم الكلام وقبول الادب كما يسرع الذي يسبى صغيرا
غير عاقل ثم لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة اذا راى نفسه محمولا مرضعا
معصبا بالخرق مسجى في المهد لانه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه
ورطوبته حين يولد ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد
فصار يخرج الى الدنيا غبيا غافلا عما فيه اهله فيلقى الاشياء بذهن ضعيف
ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلا قليلا وشيئا بعد شيء
وحالا بعد حال حتى يالف الاشياء ويتمرن ويستمر عليها فيخرج من حد
التامل لها والحيرة فيها الى التصرف والاضطراب الى المعاش بعقله وحيلته
والى الاعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية وفي هذا ايضا وجوه
اخر فانه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية
الاولاد وما قدر ان يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة
وما يوجب التربية للاباء على الابناء من المكافاة بالبر والعطف عليهم عند
حاجتهم الى ذلك منهم ثم كان الاولاد لا يالفون اباءهم ولا يالف الاباء

ابناءهم

ابناءهم لان الاولاد كانوا يستغنون عن تربية الاباء وحياطتهم فيتفرقون
عنهم حين يولدون فلا يعرف الرجل اباه وامه ولا يمتنع من نكاح امه
واخته وذوات المحارم منه اذ كان لا يعرفهن واقل ما في ذلك من
القباحة بل هو اشنع واعظم وافظع واقبح وابشع لو خرج المولود من
بطن امه وهو يعقل ان يرى منها ما لا يحل له ولا يحسن به ان يراه
افلا ترى كيف اقيم كل شيء من الخلقة على غاية الصواب وخلا من
الخطا دقيقه وجليله اعرف يا مفضل ما للاطفال في البكاء من
المنفعة واعلم ان في ادمغة الاطفال رطوبة ان بقيت فيها احدثت
عليهم احداثا جليلة وعللا عظيمة من ذهاب البصر وغيره فالبكاء
يسيل تلك الرطوبة من رؤسهم فيعقبهم ذلك الصحة في ابدانهم و
السلامة في ابصارهم افليس قد جاز ان يكون الطفل ينتفع بالبكاء و
والداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتاه ويتوخيان في الامور
مرضاته لئلا يبكي وهما لا يعلمان ان البكاء اصلح له واجمل عاقبة فهكذا
الاسباب يجوز ان يكون في كثير من الاشياء منافع لا يعرفها القائلون بالاهمال
ولو عرفوا ذلك لم يقضوا على الشيء انه لا منفعة فيه من اجل انهم لا يعرفونه
ولا يعلمون السبب فيه فان كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون وكثيرا
مما يقصر عنه علم المخلوقين محيط به علم الخالق جل قدسه وعلت كلمته
فاما ما يسيل من افواه الاطفال من الريق ففي ذلك خروج الرطوبة
التي لو بقيت في ابدانهم لاحدثت عليهم الامور العظيمة كمن تراه قد
غلبت عليه الرطوبة فاخرجته الى حد البله والجنون والتخليط الى غير
ذلك من الامراض المتلفة كالفالج واللقوة وما اشبههما فجعل
الله تلك الرطوبة تسيل من افواههم في صغرهم لما لهم في ذلك من الصحة
في كبرهم فتفضل على خلقه بما جهلوه ونظر لهم بما لم يعرفوه ولو عرفوا
نعمه عليهم لشغلهم ذلك عن التمادي في معصيته فسبحانه ما اجل
نعمته واسبغها على المستحقين وغيرهم من خلقه وتعالى عما يقول
المبطلون علوا كبيرا انظر الان يا مفضل كيف جعلت الات الجماع
في الذكر والانثى جميعا على ما يشاكل ذلك فجعل للذكر آلة ناشرة تمتد حتى
تصل النطفة الى الرحم اذ كان محتاجا الى ان يقذف ماءه في غيره وخلق

للانثى وعاء مقعرا ليشتمل على الماءين جميعا ويحمل الولد ويتسع له
حتى يستحكم اليس ذلك من تدبير حكيم لطيف سبحانه وتعالى عما يشركون
فكر يا مفضل في اعضاء البدن اجمع وتدبير كل منها للارب فاليدان
للعلاج والرجلان للسعي والعينان للاهتداء والمعدة للهضم والكبد
للتخليص والمنافذ لتنفيذ الفضول والاوعية لحملها والفرج لاقامة
النسل وكذلك جميع الاعضاء اذا تاملتها واعملت فكرك فيها ونظرك
وجدت كل شيء منها قد قدر لشيء على صواب وحكمة قال المفضل فقلت
يا مولاي ان قوما يزعمون ان هذا من فعل الطبيعة فقال سلهم عن
هذه الطبيعة اهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الافعال ام ليست
كذلك فان اوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنعهم من اثبات الخالق
فان هذه صنعته وان زعموا انها تفعل هذه الافعال بغير علم ولا عمد وكان انها تفعل هو
في افعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة علم ان هذا الفعل للخالق
الحكيم وان الذي سموه هو سنة في خلقه الجارية على ما اجراها عليه
فكر يا مفضل في وصول الغذاء الى البدن وما فيه من التدبير فان الطعام
يصير الى المعدة فتطبخه وتبعث بصفوه الى الكبد في عروق رقاق
واشجة بينها قد جعلت كالمصفي للغذاء لكيلا يصل الى الكبد منه
شيء فينكاها وذلك ان الكبد رقيقة لا تحتمل العنف ثم ان الكبد
تقبله فتستحيل بلطف التدبير دما وتنفذه الى البدن كله في مجاري
مهياة لذلك بمنزلة المجاري التي تهيا للماء حتى يطرد في الارض كلها
وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول الى مفايض قد اعدت لذلك
فما كان منه من جنس المرة الصفراء جرى الى المرارة وما كان من جنس السوداء
جرى الى الطحال وما كان من البلة والرطوبة جرى الى المثانة فتامل
حكمة التدبير في تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء منه مواضعها
واعداد هذه الاوعية فيه لتحمل تلك الفضول لئلا تنتشر في البدن
فتسقمه وتنهكه فتبارك من احسن التقدير واحكم التدبير وله الحمد تهلكه
كما هو اهله ومستحقه قال المفضل صف نشوء الابدان ونموها
حالا بعد حال حتى تبلغ التمام والكمال فقال عليه السلام اول ذلك تصوير

الجنين

الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد ويدبره حتى يخرج سويا
مستوفيا جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الاحشاء والجوارح والعوامل
الى ما في تركيب اعضائه من العظام واللحم والشحم والمخ والعصب والعروق
والغضاريف فاذا خرج الى العالم تراه كيف ينمي بجميع اعضائه
وهو ثابت على شكل وهيئة لا تتزايد ولا تنقص الى ان يبلغ اشده لا تتزايد ولا تنقص
ان مد في عمره او يستوفي مدته قبل ذلك هل هذا الا من لطيف التدبير
والحكمة يا مفضل انظر الى ما خص به الانسان في خلقه تشريفا
وتفضيلا على البهائم فانه خلق ينتصب قائما ويستوي جالسا
ليستقبل الاشياء بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل بهما
فلو كان مكبوبا على وجهه كذات الاربع لما استطاع ان
يعمل شيئا من الاعمال انظر الان يا مفضل الى هذه الحواس التي
خص بها الانسان في خلقه وشرف بها على غيره كيف جعلت العينان
في الراس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الاشياء ولم تجعل
في الاعضاء التي تحتهن كاليدين والرجلين فتعترضها الافات ويصيبها
من مباشرة العمل والحركة ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها ولا في
الاعضاء التي وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر تقلبها واطلاعها نحو الاشياء
فلما لم يكن لها في شيء من هذه الاعضاء موضع كان الراس اسنى المواضع للحواس وهو هذه
بمنزلة الصومعة لها فجعل الحواس خمسا تلقي خمسا لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات
فخلق البصر ليدرك الالوان فلو كانت الالوان ولم يكن بصر يدركها
لم تكن فيها منفعة وخلق السمع ليدرك الاصوات فلو كانت الاصوات ولم يكن
سمع يدركها لم يكن فيها ارب وكذلك سائر الحواس ثم هذا يرجع متكافئا
فلو كان بصر ولم تكن الوان لما كان للبصر معنى ولو كان سمع ولم تكن اصوات
لم يكن للسمع موضع فانظر كيف قدر بعضها يلقى بعضا فجعل لكل جارحة محسوسا
يعمل فيه ولكل محسوس حاسة تدركه ومع هذا فقد جعلت اشياء متوسطة
بين الحواس والمحسوسات لا تتم الحواس الا بها كمثل الضياء والهواء فانه لو لم يكن

ضياء يظهر اللون للبصر لم يكن البصر يدرك اللون ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت
الى السمع لم يكن يدرك الصوت فهل يخفى على من صح نظره واعمل فكره ان مثل هذا
الذي وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها يلقى بعضا وتهيئة
اشياء اخر بها تتم الحواس لا يكون الا بعمد وتقدير من لطيف خبير فكر يا مفضل
فيمن عدم البصر من الناس وما يناله من الخلل في اموره فانه لا يعرف موضع قدمه
ولا يبصر ما بين يديه فلا يفرق بين الالوان وبين المنظر الحسن والقبيح ولا يرى
حفرة ان هجم عليها ولا عدوا ان اهوى اليه بسيف ولا يكون له سبيل
ان يعمل شيئا من هذه الصناعات مثل الكتابة والتجارة والصياغة حتى انه
لولا نفاذ ذهنه لكان بمنزلة الحجر الملقى وكذلك من عدم السمع يختل في امور
كثيرة فانه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الاصوات واللحون
المشجية المطربة ويعظم المؤونة على الناس في محاورته حتى يتبرموا به ولا يسمع
شيئا من اخبار الناس واحاديثهم حتى يكون كالغائب وهو شاهد او كالميت
وهو حي فاما من عدم العقل فانه يلحق بمنزلة البهائم بل يجهل كثيرا مما
تهتدي اليه البهائم افلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل وسائر
الخلال التي بها صلاح الانسان والتي لو فقد منها شيئا لعظم ما يناله
في ذلك من الخلل يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئا منها فلم كان
كذلك الا لانه خلق بعلم وتقدير قال المفضل قلت فلم صار بعض
الناس يفقد شيئا من هذه الجوارح فيناله في ذلك مثل ما وصفته يا مولاي
قال ذلك للتاديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه كما قد يؤدب
الملوك الناس للتنكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم بل يحمد من رايهم و
يتصوب من تدبيرهم ثم ان للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب
بعد الموت ان شكروا وانابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى
انهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا ان يردوا الى البلايا ليزدادوا من الثواب
فكر يا مفضل في الاعضاء التي خلقت افرادا وازواجا وما في ذلك من الحكمة
والتقدير والصواب في التدبير فالراس مما خلق فردا ولم يكن للانسان صلاح
في ان يكون اكثر من واحد الا ترى انه لو اضيف الى راس الانسان راس اخر

لكان

لكان ثقلا عليه من غير حاجة اليه لان الحواس التي يحتاج اليها مجتمعة في راس واحد
ثم كان الانسان ينقسم قسمين لو كان له راسان فان كان تكلم من احدهما
كان الاخر معطلا لا ارب فيه ولا حاجة اليه وان تكلم منهما جميعا
بكلام واحد كان احدهما فضلا لا يحتاج اليه وان تكلم باحدهما بغير الذي
تكلم به من الاخر لم يدر السامع باي ذلك ياخذ واشباه هذا من الاخلاط
واليدان مما خلق ازواجا ولم يكن للانسان خير في ان يكون له يد واحدة
لان ذلك كان يخل به فيما يحتاج الى معالجته من الاشياء الا ترى ان النجار
والبناء لو شلت احدى يديه لا يستطيع ان يعالج صناعته وان تكلف
ذلك لم يحكمه ولم يبلغ منه ما يبلغه اذا كانت له يدان يتعاونان على العمل
اطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الانسان
فالحنجرة كالانبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والاسنان لصياغة
الحروف والنغم الا ترى ان من سقطت اسنانه لم يقم السين ومن
سقطت شفته لم يصحح الفاء ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء واشبه
شيء بذلك المزمار الاعظم فالحنجرة يشبه قصبة المزمار والرئة يشبه الزق
الذي ينفخ فيه لتدخل الريح والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالاصابع
التي تقبض على الزق حتى تخرج الريح في المزمار والشفتان والاسنان التي
تصوغ الصوت حروفا ونغما كالاصابع التي تختلف في فم المزمار فتصوغ
صفيره الحانا غير انه وان كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالدلالة والتعريف
فان المزمار بالحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت قد انباتك بما في الاعضاء
من الغناء في صنعة الكلام واقامة الحروف وفيها مع الذي ذكرت لك
مآرب اخرى فالحنجرة ليسلك فيها هذا النسيم الى الرئة وتروح على الفؤاد
بالنفس الدائم المتتابع الذي لو احتبس شيئا يسيرا لهلك الانسان و
باللسان يذاق الطعام فيميز بينها ويعرف كل واحد منها حلوها من
مرها وحامضها من مرها ومالحها من عذبها وطيبها من خبيثها وفيه
مع ذلك معونة على اساغة الطعام والشراب والاسنان لمضغ الطعام
حتى يلين ويسهل اساغته وهي مع ذلك كالسند للشفتين تمسكهما و
تدعمهما من داخل الفم واعتبر ذلك فانك ترى ان من سقطت اسنانه
مسترخي الشفة ومضطربها وبالشفتين يترشف الشراب حتى يكون الذي يصل

الثج السيلان

الى الجوف بقصر وقد لا تثج ثجا فيغص بها الشارب وينكا في الجوف
ثم هما يعدلان كالباب المطبق على الفم يفتحهما اذا شاء ويطبقهما اذا شاء
ففيما وصفنا من هذا بيان ان كل واحد من الاعضاء ينصرف وينقسم الى
وجوه من المنافع كما تنصرف الاداة الواحدة في اعمال شتى وذلك كالفاس
يستعمل في النجارة والحفر وغيرهما من الاعمال لو رايت الدماغ اذا كشفت
عنه لرايته قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الاعراض وتمسكه
فلا يضطرب ولرايت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة كيما تقيه هدة الصدمة
والنكبة التي ربما وقعت في الراس ثم قد جللت الجمجمة بالشعر حتى صار
بمنزلة الفرو للراس يستره من شدة البرد والحر فمن حصن الدماغ هذا التحصين
الا الذي خلقه وجعله ينبوع الحس والمستحق للحياطة والصيانة بعلو
منزلته من البدن وارتفاع درجته وخطر مرتبته تامل يا مفضل الجفن
على العين كيف جعل كالغشاء والاشفار كالاشراج واولجها في هذا
الغار واظلها بالحجاب وما عليه من الشعر يا مفضل من غيب الفؤاد
في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه وحصنه بالجوانح
وما عليها من اللحم والعصب لئلا يصل اليه ما ينكاه من جعل في الحلق منفذين
احدهما لمخرج الصوت وهو الحلقوم المتصل بالرية والاخر منفذ الغذاء
وهو المرئ المتصل بالمعدة الموصل الغذاء اليها وجعل على الحلقوم طبقا يمنع
الطعام ان يصل الى الرية فيقتل من جعل الرية مروحة الفؤاد لا تفتر ولا
تخل لكيلا تتحير الحرارة في الفؤاد فتؤدي الى التلف من جعل لمنافذ البول
والغائط اشراجا تضبطهما لئلا يجريا جريانا دائما فيفسد على الانسان عيشه
فكم عسى ان يحصي المحصي من هذا بل الذي لا يحصى منه ولا يعلمه الناس اكثر من
جعل المعدة عصبانية شديدة وقدرها لهضم الطعام الغليظ ومن جعل الكبد
رقيقة ناعمة لقبول الصفو اللطيف من الغذاء ولتهضم وتعمل ما هو الطف من
عمل المعدة الا الله القادر اترى الاهمال ياتي بشيء من ذلك كلا بل هو
تدبير مدبر حكيم قادر عليم بالاشياء قبل خلقه اياها لا يعجزه شيء وهو
اللطيف الخبير فكر يا مفضل لم صار المخ الرقيق محصنا في انابيب العظام
هل ذلك الا ليحفظه ويصونه لم صار الدم المحصور في العروق بمنزلة
الماء في الظروف الا لتضبطه ولا يفيض لم صارت الاظفار على اطراف

الاصابع

الاصابع الا وقاية لها ومعونة على العمل لم صار داخل الاذن ملتويا كهيئة
الكوكب الا ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي الى السمع وليكسر حمية الريح فلا
ينكا في السمع لم حمل الانسان على فخذيه واليتيه هذا اللحم الا ليقيه من
الارض فلا يتالم من الجلوس عليهما كما يالم من نحل جسمه وقل لحمه اذا لم يكن بينه
وبين الارض حائل يقيه صلابتها من جعل الانسان ذكرا وانثى الا
من خلقه متناسلا الا من خلقه مؤملا ومن اعطاه آلات العمل
الا من خلقه عاملا ومن خلقه عاملا الا من جعله محتاجا ومن جعله
محتاجا الا من ضربه بالحاجة ومن ضربه بالحاجة الا من توكل بتقويمه
من خصه بالفهم الا من اوجب له الجزاء ومن وهب له الحيلة الا من ملكه
الحول ومن ملكه الحول الا من الزمه الحجة من يكفيه ما لا تبلغه حيلته
الا من لا يبلغ مدى شكره فكر وتدبر ما وصفته هل تجد الاهمال
ياتي على مثل هذا النظام والترتيب تبارك الله وتعالى عما يصفون ن
اصف لك الان يا مفضل الفؤاد اعلم ان فيه ثقبا موجهة نحو الثقب
التي في الرية تروح عن الفؤاد حتى لو اختلفت تلك الثقب وتزايل بعضها
عن بعض لما وصل الروح الى الفؤاد ولهلك الانسان افيستجيز ذو فكر
وروية ان يزعم ان مثل هذا يكون بالاهمال ولا يجد شاهدا من
نفسه عن هذا القول لو رايت فردا من مصراعين فيه كلاليب — (هامش: ن يزعه)
اكنت تتوهم انه جعل كذلك بلا معنى بل كنت ستعلم ضرورة انه
مصنوع يلقى فردا آخر فيبرزه ليكون في اجتماعهما ضرب من
المصلحة وهكذا تجد الذكر من الحيوان كانه فرد من زوج مهيا من فرد
انثى فيلتقيان لما فيه من دوام النسل وبقائه فتبا وخيبة وتعسا
لمنتحلي الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى انكروا
التدبير والعمد فيها لو كان فرج الرجل مسترخيا كيف كان يصل الى
قعر الرحم حتى يفرغ النطفة فيه ولو كان منعظا ابدا كيف كان الرجل
يتقلب في الفراش او يمشي بين الناس وشيء شاخص امامه ثم يكون في
ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة في كل وقت من الرجال والنساء جميعا

فقد دل التدبير حواسه ان يكون اكثر ذلك لا يسبقه البصر في كل وقت ولا يكون على الرجال
منه مؤنة وجعل فيه القوة على الانتصاب وقت الحاجة الى ذلك لما قدر
ان يكون فيه من دوام النسل وبقائه اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على
الانسان في مطعمه ومشربه وتسهيل خروج الاذى اليس من حسن التقدير
في بناء الدار ان يكون الخلاء في استر موضع منها فهكذا جعل الله سبحانه
المنفذ المهيأ للخلاء من الانسان في استر موضع منه فلم يجعله بارزا من
خلفه ولا ناشرا من بين يديه بل هو مغيب في موضع غامض من البدن
مستور محجوب يلتقي عليه الفخذان وتحجبه الأليتان بما عليهما من اللحم
فيواريانه فاذا احتاج الانسان الى الخلاء وجلس تلك الجلسة الفى ذلك
المنفذ منه منصبا مهيأ لانحدار الثفل فتبارك من تظاهرت آلاؤه
ولا تحصى نعماؤه فكر يا مفضل في هذه الطواحن التي جعلت للانسان
فبعضها حداد لقطع الطعام وقرضه وبعضها عراض لمضغه ورضه فلم
ينقص واحد من الصفتين اذ كان محتاجا اليهما جميعا تأمل واعتبر
بحسن التدبير في خلق الشعر والاظفار فانهما لما كانا مما يطول ويكثر
حتى يحتاج الى تخفيفه اولا فاولا جعلا عديمي الحس لئلا يؤلم الانسان
الاخذ منهما ولو كان قص الشعر وتقليم الاظفار مما يوجد له مس من ذلك لكان
الانسان من ذلك بين مكروهين اما ان يدع كل واحد منهما حتى يطول
فيثقل عليه واما ان يخففه بوجع وألم يتألم منه قال المفضل فقلت
فلم لم يجعل ذلك خلقة لا تزيد فيحتاج الانسان الى النقصان منه
فقال عليه السلام ان الله تبارك اسمه في ذلك على العبد نعما لا يعرفها
لا يعرفها فيحمد عليها اعلم ان آلام البدن وادواءه تخرج بخروج الشعر
في مسامه وبخروج الاظفار من اناملها ولذلك امر الانسان بالنورة
وحلق الراس وقص الاظفار في كل اسبوع ليسرع الشعر والاظفار
في النبات فتخرج الآلام والادواء بخروجهما واذا طالا تحيرا وقل
خروجهما فاحتبست الآلام والادواء في البدن فاحدثت عللا واوجاعا
ومنع مع ذلك الشعر من المواضع التي تضر بالانسان وتحدث عليه الفساد

والضرر

والضرر لو نبت الشعر في العين ألم يكن سيعمي البصر ولو نبت في الفم ألم يكن
سيغص على الانسان طعامه وشرابه ولو نبت في باطن الكف ألم يكن
سيعوقه عن صحة اللمس وبعض الاعمال ولو نبت في فرج المرأة او على
ذكر الرجل ألم يكن سيفسد عليهما لذة الجماع فانظر كيف تنكب الشعر
هذه المواضع لما في ذلك من المصلحة ثم ليس هذا في الانسان فقط بل تجده
في البهائم والسباع وسائر المتناسلات فانك ترى اجسامهن مجللة
بالشعر وترى هذه المواضع خالية منه لهذا السبب بعينه فتأمل الخلقة
كيف تتحرز وجوه الخطأ والمضرة وتأتي بوجوه الصواب والمنفعة ان
المنانية واشباههم حين اجتهدوا في عيب الخلقة والعمد عابوا الشعر
النابت على الركب والابطين ولم يعلموا ان ذلك من رطوبة تنصب الى
هذه المواضع فينبت فيها الشعر كما ينبت العشب في مستنقع
الماء أفلا ترى الى هذه المواضع استر واهيأ لقبول تلك الفضلة من غيرها
ثم ان هذه تعد مما يحمل الانسان من مؤنة هذا البدن وتكاليفه لما له
في ذلك من المصلحة فان اهتمامه بتنظيف بدنه واخذ ما يعلوه من الشعر
مما يكسر به شرته ويكف عاديته ويشغله عن بعض ما يخرجه اليه الفراغ من الاشر
والبطالة تأمل الريق وما فيه من المنفعة فانه جعل يجري جريانا دائما
الى الفم ليبل الحلق واللهوات فلا يجف فان هذه المواضع لو جعلت
كذلك كان فيه هلاك الانسان ثم كان لا يستطيع ان يسيغ طعاما
اذا لم يكن في الفم بلة تنفذه تشهد بذلك المشاهدة واعلم ان الرطوبة
مطية الغذاء وقد تجري من هذه البلة الى موضع آخر من المرة فيكون
في ذلك صلاح تام للانسان ولو يبست المرة لهلك الانسان ولقد
قال قوم من جهلة المتكلمين وضعفة المتفلسفين بقلة التمييز وقصور
العلم لو كان بطن الانسان كهيئة القباء يفتحه الطبيب اذا شاء فيعاين ما فيه
ويدخل يده فيعالج ما اراد علاجه ألم يكن اصلح من ان يكون مصمتا محجوبا
عن البصر واليد لا يعرف ما فيه الا بدلالات غامضة مثل النظر الى البول
وحس العرق وما اشبه ذلك مما يكثر فيه الغلط والشبهة حتى ربما
كان ذلك سببا للموت فلو علم هؤلاء الجهلة ان هذا لو كان هكذا كان اول ما فيه
انه كان يسقط عن الانسان الوجل من الامراض والموت وكان يستشعر البقاء

[illegible]

العشب بالضم الكلأ

ويغتر بالسلامة فيتجرد الى العتو والاشر ثم كانت الرطوبات التي في البطن
تترشح وتتحلب فتفسد على الانسان مقعده وثوبه وثياب بذلته وزينته
بل كان يفسد عليه عيشه ثم ان المعدة والكبد والفواد انما تفعل افعالها
بالحرارة الغريزية التي جعلها الله محتبسة في الجوف فلو كان في البطن فرج ينفذ
حتى يصل البصر الى رويته واليد الى علاجه لوصل برد الهواء الى الجوف فمازج
الحرارة الغريزية وبطل عمل الاحشاء فكان في ذلك هلاك الانسان افلا
ترى ان كل ما تذهب اليه الاوهام سوى ما جاءت به الخلقة خطأ وخطل
فكر يا مفضل في الافعال التي جعلت في الانسان من الطعم والنوم والجماع وما
دبر فيها فانه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرك يقتضيه ويستحث
به فالجوع يقتضي الطعم الذي به حيوة البدن وقوامه والكرى يقتضي النوم
الذي فيه راحة البدن واجمام قواه والشبق يقتضي الجماع الذي فيه دوام
النسل وبقاؤه ولو كان الانسان انما يصير الى اكل الطعام لمعرفته بحاجة
بدنه اليه ولم يجد من طباعه شيئا يضطره الى ذلك كان خليقا ان يتوانا
عنه احيانا بالتثقل والكسل حتى ينحل بدنه فيدافع به حتى يوديه ذلك
الى المرض والموت وكذلك لو كان انما يصير الى النوم بالتفكر في حاجته الى
راحة البدن واجمام قواه كان عسى ان يتثاقل عن ذلك فيدمغه حتى ينهك
بدنه ولو كان انما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد ان يفتر
عنه حتى يقل النسل او ينقطع فان من الناس من لا يرغب في الولد
ولا يحفل به فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الافعال التي بها قوام
الانسان وصلاحه محرك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه عليه
واعلم ان في الانسان قوى اربعا قوة جاذبة تقبل الغذاء وتورده
على المعدة وقوة ممسكة تحبس الطعام حتى تفعل فيه الطبيعة فعلها
وقوة هاضمة وهي التي تطبخه وتستخرج صفوه وتبثه في البدن
وقوة دافعة تدفعه وتحدر الثفل الفاضل بعد اخذ الهاضمة حاجتها
تفكر في تقدير هذه القوى الاربع التي وافعالها وتقديرها للحاجة
اليها والارب فيها وما في ذلك من التدبير والحكمة فلولا الجاذبة
كيف يتحرك الانسان لطلب الغذاء التي بها قوام البدن ولولا الماسكة
كيف كان يلبث الطعام في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف

تحلب العرق سال ق

في مع

جم جمو ما كثر والجمع ق

فيهلك كما يحتاج الواحد الى الدواء لشيء مما يصلح به بدنه صح

وتبثه د ر

كان

كان ينطبخ حتى يخلص منه الصفو الذي يغذو البدن ويسد خلله ولولا
الدافعة كيف كان الثفل الذي تخلفه الهاضمة يندفع ويخرج اولا فاولا
افلا ترى كيف وكل الله سبحانه بلطيف صنعه وحسن تقديره هذه
القوى بالبدن والقيام بما فيه صلاحه وسامثل لك في ذلك مثالا
ان البدن بمنزلة دار الملك وله فيها حشم وصبية وقوام موكلون بالدار
فواحد لاقضاء حوائج الحشم وايرادها عليهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه الى
ان يعالج ويهيأ وآخر لعلاج ذلك وتهيئته وتفريقه وآخر لتنظيف
ما في الدار من الاقذار واخراجه منها فالملك في هذا هو الخلاق الحكيم ملك
العالمين والدار هي البدن والحشم هي الاعضاء والقوام هي هذه القوى
الاربع وافعالها بعد الذي وصفت فضلا وتزدادا اذ ليس ما ذكرته من هذه
القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الاطباء ولا قولنا فيه كقولهم لانهم ذكروها
على ما يحتاج اليه في صناعة الطب وتصحيح الابدان وذكرناها على ما يحتاج في صلاح
الدين وشفاء النفوس من الغي كالذي اوضحته بالوصف الشافي والمثل المضروب
من التدبير والحكمة فيها تامل يا مفضل هذه القوى التي في النفس وموقعها من
الانسان اعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك افرايت لو نقص الانسان
من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله وكم من خلل كان يدخل عليه
في اموره ومعاشه وتجاربه اذا لم يحفظ ما له وعليه وما اخذه وما اعطى وما
راى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من احسن اليه ممن اساء به وما نفعه
مما ضره ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يحصى ولا يحفظ علما ولو درسه
عمره ولا يعتقد دينا ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع ان يعتبر شيئا على ما مضى
بل كان حقيقا ان ينسلخ من الانسانية اصلا فانظر الى النعمة على الانسان في
هذه الخلال وكيف موقع الواحدة منها دون الجميع واعظم من النعمة على الانسان
في الحفظ النعمة في النسيان فانه لولا النسيان لما سلا احد عن مصيبة ولا
انقضت له حسرة ولا مات له حقد ولا استمتع بشي من متاع الدنيا مع
تذكر الافات ولا رجا غفلة من سلطان ولا فترة من حاسد افلا ترى كيف
جعل في الانسان الحفظ والنسيان وهما مختلفان متضادان وجعل له في كل منهما
ضرب من المصلحة وما عسى ان يقول الذين قسموا الاشياء بين خالقين متضادين

الخالق

فهذه الاشياء المتضادة المتباينة قد تعاونت على ما فيه الصلاح والمنفعة
انظر يا مفضل الى ما خص به الانسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل
قدره العظيم غناؤه اعني الحياء فلولاه لم يقر ضيف ولم يوف بالعدات
ولم تقض الحوائج ولم يتحر الجميل ولم يتنكب القبيح في شي من الاشيا حتى ان كثيرا
من الامور المفترضة ايضا انما يفعل للحياء فان من الناس من لولا الحياء لم يرع
حق والديه ولم يصل ذا رحم ولم يود امانة ولم يعف عن فاحشة افلا ترى كيف
وفى للانسان جميع الخلال التي فيها صلاحه وتمام امره تامل يا مفضل ما
انعم الله تقدست اسماؤه به على الانسان من هذا النطق الذي يعبر به عما في
ضميره وما يخطر بقلبه ونتيجة فكره وبه يفهم عن غيره ما في نفسه ولولا ذلك كان
بمنزلة البهائم المهملة التي لا تخبر عن نفسها بشي ولا تفهم عن مخبر شيئا وكذلك
الكتابة التي بها تقيد اخبار الماضين للباقين واخبار الباقين للآتين و
بها تخلد الكتب في العلوم والآداب وغيرها وبها يحفظ الانسان ذكر ما يجري
بينه وبين غيره من المعاملات والحساب ولولاها لانقطع اخبار بعض الازمنة
عن بعض واخبار الغائبين عن اوطانهم ودرست العلوم وضاعت الآداب وعظم ما
يدخل على الناس من الخلل في امورهم ومعاملاتهم وما يحتاجون النظر فيه من امر
دينهم وما روي لهم مما يسعهم جهله ولعلك تظن انها مما يخلص اليه بالحيلة و
الفطنة وليست مما اعطيه الانسان من خلقه وطباعه وكذلك الكلام انما هو شي
يصطلح عليه الناس فيجري بينهم ولهذا صار يختلف في الامم المختلفة بالسن مختلفة
وكذلك الكتابة ككتابة العربي والسرياني والعبراني والرومي وغيرها من سائر
الكتابة التي هي متفرقة في الامم انما اصطلحوا عليها كما اصطلحوا على الكلام فيقال
لمن ادعى ذلك ان الانسان وان كان له في الامرين جميعا فعل او حيلة فان الشي
الذي يبلغ به ذلك الفعل والحيلة عطية وهبة من الله عز وجل له في خلقه فانه لو
لم يكن له لسان مهيا للكلام وذهن يهتدي به للامور لم يكن ليتكلم ابدا ولو لم يكن
له كف مهياة واصابع للكتابة لم يكن ليكتب ابدا واعتبر ذلك من البهائم
التي لا كلام لها ولا كتابة فاصل ذلك فطرة البارئ جل وعز وما تفضل به على
خلقه فمن شكر اثيب ومن كفر فان الله غني عن العالمين فكر يا مفضل فيما

اعطي الانسان

اعطي الانسان علمه وما منع فانه اعطي علم جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه فمما فيه صلاح
دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلائل والشواهد القائمة في الخلق ومعرفة الواجب
عليه من العدل على الناس كافة وبر الوالدين واداء الامانة ومواساة اهل الخلة الحاجة
واشباه ذلك مما قد توجد معرفته والاقرار والاعتراف به في الطبع والفطرة من
كل امة موافقة او مخالفة وكذلك اعطي علم ما فيه صلاح دنياه كالزراعة والغراس
واستخراج الارضين واقتناء الاغنام والانعام واستنباط المياه ومعرفة
العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الاسقام والمعادن التي يستخرج منها
انواع الجواهر وركوب السفن والغوص في البحر وضروب الحيل في صيد الوحش
والطير والحيتان والتصرف في الصناعات ووجوه المتاجر والمكاسب وغير
ذلك مما يطول شرحه ويكثر تعداده مما فيه صلاح امره في هذه الدار فاعطي
علم ما يصلح به دينه ودنياه ومنع ما سوى ذلك مما ليس في شانه ولا طاقته ان
يعلم كعلم الغيب وما هو كائن وبعض ما قد كان ايضا كعلم ما فوق السماء وما تحت
الارض وما في لجج البحر واقطار العالم وما في قلوب الناس وما في الارحام و
اشباه هذا مما حجب على الناس علمه وقد ادعت طائفة من الناس هذه الامور
فابطل دعواهم ما يتبين من خطائهم فيما يقضون عليه ويحكمون به فيما ادعوا
علمه فانظر كيف اعطي الانسان علم جميع ما يحتاج اليه لدينه ودنياه وحجب عنه
ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه وكلا الامرين فيهما صلاحه تامل
الآن يا مفضل ما ستر عن الانسان علمه من مدة حياته فانه لو عرف مقدار عمره
وكان قصير العمر لم يتهنا بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه
بل كان يكون بمنزلة من قد فني ماله او قارب الفناء فقد استشعر الفقر
والوجل من فناء ماله وخوف الفقر على ان الذي يدخل على الانسان من فناء
العمر اعظم مما يدخل عليه من فناء المال لان من يقل ماله يامل ان يستخلف منه
فيسكن الى ذلك ومن ايقن بفناء العمر استحكم عليه الياس وان كان طويل
العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك في اللذات والمعاصي وعمل على
انه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب في آخر عمره وهذا مذهب لا يرضاه الله من
عباده ولا يقبله الا ترى لو ان عبدا لك عمل على انه يسخطك سنة و

يرضيك يوما او شهرا لم يقبل ذلك منه ولم يحل عندك محل العبد الصالح دون ان يكون في
طاعتك ونصحك في كل الامور في كل الاوقات على تصرف الحالات فان قلت اوليس
قد يقيم الانسان على المعصية حينا ثم يتوب فيقبل توبته قلنا ان ذلك شيء يكون
من الانسان لغلبة الشهوات له وتركه مخالفتها من غير ان يكون يقدره في نفسه
ويبني عليه امره فيصفح الله عنه ويتفضل عليه بالمغفرة فاما من قدر امره على
ان يعصي ما بدا له ثم يتوب آخر ذلك فانما يحاول خديعة من لا يخادع بان
يتسلف التلذذ في العاجل ويعد ويمني نفسه التوبة في الآجل ولانه لا يفي بما
يعد من ذلك فان النزوع من الترفه والتلذذ ومعاناة التوبة ولاسيما عند
الكبر وضعف البدن امر صعب ولا يؤمن على الانسان مع مدافعته بالتوبة
ان يرهقه الموت فيخرج من الدنيا غير تائب كما قد يكون على الواحد دين الى اجل
وقد يقدر على قضائه فلا يزال يدافع بذلك حتى يحل الاجل وقد نفد المال
فيبقى الدين قائما عليه فكان خير الاشيا للانسان ان يستر عنه مبلغ عمره
فيكون طول عمره يترقب الموت فيترك المعاصي ويؤثر العمل الصالح فان
قلت وها هو الآن قد ستر عنه مقدار حياته وصار يترقب الموت في كل
ساعة يقارف الفواحش وينتهك المحارم قلنا ان وجه التدبير في هذا الباب
هو الذي جرى عليه الامر فيه فان كان الانسان مع ذلك لا يرعوي ولا ينصرف
عن المساوي فانما ذلك من مرحه ومن قساوة قلبه لا من خطا في التدبير
كما ان الطبيب قد يصف للمريض ما ينتفع به فان كان المريض مخالفا لقول الطبيب
لا يعمل بما يامره ولا ينتهي عما ينهاه عنه لم ينتفع بصفته ولم تكن الاساءة في
ذلك للطبيب بل للمريض حيث لم يقبل منه ولئن كان الانسان مع ترقبه
للموت كل ساعة لا يمتنع عن المعاصي فانه لو وثق بطول البقا كان احرى بان
يخرج الى الكبائر الفظيعة فترقب الموت على كل حال خير له من الثقة بالبقا
ثم ان ترقب الموت وان كان صنف من الناس يلهون عنه ولا يتعظون به
فقد يتعظ به صنف آخر منهم وينزعون عن المعاصي ويؤثرون العمل
الصالح ويجودون بالاموال والعقائل النفيسة في الصدقة على الفقرا و

العقائل الكرائم ذكره عام في الابل
والغنم والخيل ونفائس

المساكين

المساكين فلم يكن من العدل ان يحرم هؤلاء الانتفاع بهذه الخصلة لتضييع اولئك
حظهم منها فكر في الاحلام كيف دبر الامر فيها فمزج صادقها بكاذبها فانها لو
كانت كلها تصدق لكان الناس كلهم انبيا ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة
بل كانت فضلا لا معنى له فصارت تصدق احيانا فينتفع بها الناس في مصلحة يهتدى
لها او مضرة يتحرز منها وتكذب كثيرا لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد فكر في هذه
الاشيا التي تراها موجودة معدة في العالم من مآربهم فالتراب للبنا والحديد
للصناعات والخشب للسفن وغيرها والحجارة للارحا وغيرها والنحاس
للاواني والذهب والفضة للمعاملة والجوهر للذخيرة والحبوب للغذا والثمار
للتفكه واللحم للماكل والطيب للتلذذ والادوية للتصحح والدواب للحمولة والحطب
للتوقد والرماد للكلس والرمل للارض وكم عسى ان يحصي المحصي من هذا
وشبهه ارايت لو ان داخلا دخل دارا فنظر الى خزائن مملوة من كل ما يحتاج
اليه الناس وراى كل ما فيها مجموعا لاسباب معروفة اكان يتوهم ان مثل هذا
يكون بالاهمال ومن غير عمد فكيف يستجيز قائل ان يقول هذا في العالم وما اعد
فيه من هذه الاشيا اعتبر يا مفضل باشيا خلقت لمآرب الانسان وما فيها
من التدبير فانه خلق له الحب لطعامه وكلف طحنه وعجنه وخبزه وخلق له الوبر
لكسوته فكلف ندفه وغزله ونسجه وخلق له الشجر فكلف غرسها وسقيها
والقيام عليها وخلقت له العقاقير لادويته فكلف لقطها وخلطها وصنعتها
وكذلك تجد سائر الاشيا على هذا المثال فانظر كيف كفي الخلقة التي لم يكن
عنده فيها حيلة وترك عليه في كل شيء من الاشيا موضع عمل وحركة لما له في
ذلك من الصلاح لانه لو كفي هذا كله حتى لا يكون له في الاشيا موضع شغل
وعمل لما حملته الارض اشرا وبطرا ولبلغ به ذلك الى ان يتعاطى امورا فيها تلف
نفسه ولو كفي الناس كل ما يحتاجون اليه لما تهنوا بالعيش ولا وجدوا له لذة
الا ترى لو ان امرا نزل بقوم فاقام حينا بلغ جميع ما يحتاج اليه من مطعم ومشرب
وخدمة لتبرم بالفراغ ونازعته نفسه الى التشاغل بشيء فكيف لو كان طول
عمره مكفيا لا يحتاج الى شيء وكان من صواب التدبير في هذه الاشيا التي
خلقت للانسان ان جعل له فيها موضع شغل لكيلا تبرمه البطالة ولتكفه
عن تعاطي ما لا يناله ولا خير فيه ان ناله واعلم يا مفضل ان راس معاش الانسان
وحياته الخبز والما فانظر كيف دبر الامر فيهما فان حاجة الانسان الى الما اشد

من حاجته الى الخبز وذلك ان صبره على الجوع اكثر من صبره على العطش والذي يحتاج
اليه من الماء اكثر مما يحتاج اليه من الخبز لانه يحتاج اليه لشربه ووضوئه وغسله وغسل
ثيابه وسقي انعامه وزرعه فجعل الماء مبذولا لا يشترى لتسقط عن الانسان
المؤنة في طلبه وتكلفه وجعل الخبز متعذرا لا ينال الا بالحيلة والحركة ليكون للانسان
في ذلك شغل يكفه عما يخرجه اليه الفراغ من الاشر والعبث الا ترى ان الصبي
يدفع الى المؤدب وهو طفل لم يكمل ذهنه للتعليم كل ذلك ليشتغل عن اللعب
والعبث اللذين ربما جنيا عليه وعلى اهله المكروه العظيم وهكذا الانسان لو
خلا من الشغل من الاشر والعبث والبطر الى ما يعظم ضرره عليه وعلى من قرب
منه واعتبر ذلك بمن نشأ في الجدة ورفاهية العيش والترفه والكفاية
وما يخرجه ذلك اليه اعتبر لم لا يتشابه الناس واحد بالآخر كما تتشابه الوحوش
والطير وغير ذلك فانك ترى السرب من الظباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق
بين احد منها وبين الاخرى وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم حتى لا يكاد
اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة والعلة في ذلك ان الناس محتاجون الى
ان يتعارفوا باعيانهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات وليس يجري بين البهائم
مثل ذلك فيحتاج الى معرفة كل واحد منها بعينه وحليته الا ترى ان التشابه في
الطير والوحش لا يضرها شيئا وليس كذلك الانسان فانه ربما تشابه التوأمان
تشابها شديدا فتعظم المؤنة على الناس في معاملتهما حتى يعطى احدهما بالآخر
ويؤخذ احدهما بذنب الآخر وقد يحدث مثل هذا في تشابه الاشياء
فضلا عن تشابه الصور من لطف بعباده بهذه الدقائق التي لا تكاد تخطر
بالبال حتى وقف بها على الصواب الا من وسعت رحمته كل شيء لو رأيت تمثال
الانسان مصورا على حائط فقال لك قائل ان هذا ظهر هاهنا من تلقاء نفسه
لم يصنعه صانع اكنت تقبل ذلك بل كنت تستهزئ به فكيف تنكر هذا في تمثال
مصور جماد ولا تنكر في الانسان الحي الناطق لم صارت ابدان الحيوان
وهي تغتذي ابدا لا تنمي بل تنتهي الى غاية من النمو ثم تقف ولا تتجاوزها
لولا التدبير في ذلك فان من تدبير الحكيم فيها ان تكون ابدان كل صنف
منها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبير والصغير وصارت تنمي حتى
تصل الى غاياتها ثم تقف ثم لا تزيد والغذاء مع ذلك دائم لا ينقطع ولو كانت
تنمي نموا دائما لعظمت ابدانها واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء
منها حد يعرف لم صارت اجسام الانس خاصة تثقل عن الحركة والمشي ويجفو

جنى الذنب عليه يجنيه جناية جره اليه ق

السرب [illegible] كلها ق

[illegible]

عن الصناعات

عن الصناعات اللطيفة الا لتعظيم المؤنة فيما يحتاج اليه الناس للملبس والمضجع
التكفين وغير ذلك لو كان الانسان لا يصيبه الم ولا وجع بم كان يرتدع عن
الفواحش ويتواضع لله ويتعطف على الناس اما ترى الانسان اذا عرض
له وجع خضع واستكان ورغب الى ربه في العافية وبسط يده بالصدقة
ولو كان لا يألم من الضرب بم كان السلطان يعاقب الدعار ويذل العصاة المردة
وبم كان الصبيان يتعلمون العلوم والصناعات وبم كان العبيد يذلون
لاربابهم ويذعنون لطاعتهم افليس هذا توبيخ لابن ابي العوجاء وذويه
الذين جحدوا التدبير والمانوية الذين انكروا الالم والوجع لو لم يولد من
الحيوان الا ذكور فقط او اناث فقط الم يكن النسل منقطعا وباد مع ذلك
اجناس الحيوان فصار بعض الاولاد يأتي ذكورا وبعضها يأتي اناثا ليدوم
التناسل ولا ينقطع لم صار الرجل والمرأة اذا ادركا تنبت لهما العانة
ثم تنبت اللحية للرجل وتتخلف عن المرأة لولا التدبير في ذلك فانه لما
جعل الله تبارك وتعالى الرجل قيما ورقيبا على المرأة وجعل المرأة عرسا وخولا
للرجل اعطى الرجل اللحية لما له من العز والجلالة والهيبة ومنعها المرأة
لتبقى لها نضارة الوجه والبهجة التي تشاكل المفاكهة والمضاجعة
افلا ترى الخلقة كيف تأتي بالصواب في الاشياء وتتخلل المواضع الخطاء فتعطي
وتمنع على قدر الارب والمصلحة بتدبير الحكيم عز وجل قال المفضل ثم حان
وقت الزوال فقام مولاي الى الصلاة وقال بكر الي غدا ان شاء الله فانصرفت
من عنده مسرورا بما عرفته مبتهجا بما اوتيته حامدا لله على ما انعم به
علي شاكرا لانعمه على ما منحني بما عرفنيه مولاي وتفضل به علي فبت ليلتي
مسرورا بما منحنيه محبورا بما علمنيه تم المجلس الاول يتلوه المجلس الثاني
من كتاب الادلة على الخالق والتدبير والرد على القائلين بالاهمال ومنكري
العمد برواية المفضل عن الصادق عليه السلام وعلى آبائه قال المفضل فلما كان
اليوم الثاني بكرت الى مولاي فاستؤذن لي فدخلت فامرني بالجلوس
فجلست فقال الحمد لله مدبر الادوار ومعيد الاكوار طبقا عن طبق وعالما
بعد عالم ليجزي الذين اساؤوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى عدلا منه
تقدست اسماؤه وجلت آلاؤه لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون
يشهد بذلك قوله عز وجل فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا
يره في نظائر لها في كتابه الذي فيه تبيان كل شيء ولا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ولذلك قال سيدنا محمد صلوات الله عليه وآله

الدعر محركة الفسق

ذعن له خضع وذل واسرع في الطاعة وانقاد ق

للمداعبة

٢

انما هي اعمالكم ترد اليكم ثم اطرق هنيئة ثم قال يا مفضل الخلق حيارى عمهون
سكارى في طغيانهم يترددون وبشياطينهم وطواغيتهم يقتدون بصراء عمي لا
يبصرون نطقاء بكم لا يعقلون سمعاء صم لا يسمعون رضوا بالدون و
حسبوا انهم مهتدون حادوا عن مدرجة الاكياس ورتعوا في مرعى الارجاس
الانجاس صاروا كانهم من مفاجاة الموت آمنون وعن المجازاة مزحزحون
يا ويلهم ما اشقاهم واطول عناهم واشد بلاءهم يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا
ولا هم ينصرون الا من رحم الله قال المفضل فبكيت لما سمعت منه فقال لا تبك
تخلصت اذ قبلت ونجوت اذ عرفت ثم قال ابتدئ لك بذكر الحيوان ليتضح لك
من امره ما وضح لك من غيره فكر في ابنية ابدان الحيوان وتهيئتها على ما هي عليه
فلا هي صلاب كالحجارة ولو كانت كذلك لا تنثني ولا تتصرف في الاعمال
ولا هي على غاية اللين والرخاوة فكانت لا تتحامل ولا تستقل بانفسها فجعلت
من لحم رخو ينثني تتداخله عظام صلاب يمسكه عصب وعروق تشده وتضم
بعضه الى بعض وغلفت فوق ذلك بجلد يشتمل على البدن كله ومن اشباه
ذلك هذه التماثيل التي تعمل من العيدان وتلف بالخرق وتشد بالخيوط وتطلى
فوق ذلك بالصمغ فتكون العيدان بمنزلة العظام والخرق بمنزلة اللحم والخيوط
بمنزلة العصب والعروق والطلاء بمنزلة الجلد فان جاز ان يكون الحيوان المتحرك حدث
بالاهمال من غير صانع جاز ان يكون ذلك في هذه التماثيل الميتة فان كان
هذا غير جائز في التماثيل فبالحري ان لا يجوز في الحيوان وفكر بعدها في
اجساد الحيوان الانعام فانها حين خلقت على ابدان الانس من اللحم والعظم
والعصب اعطيت ايضا السمع والبصر ليبلغ الانسان حاجته فانها لو
كانت عمياء صماء لما انتفع بها الانسان ولا تصرفت في شيء من
مآربه ثم منعت الذهن والعقل لتذل للانسان فلا تمتنع عليه اذا كدها
الكد الشديد وحملها الحمل الثقيل فان قال قائل انه قد يكون للانسان
عبيد من الانس يذلون ويذعنون بالكد الشديد
وهم مع ذلك غير عديمي العقل والذهن فيقال في جواب ذلك ان هذا
الصنف في الناس قليل فاما اكثر الناس فلا يذعنون بما تذعن به
الدواب من الحمل والطحن وما اشبه ذلك ولا يغرون بما يحتاج اليه منه
ثم لو كان الناس يزاولون مثل هذه الاعمال بابدانهم لشغلوا بذلك عن
سائر الاعمال لانه كان يحتاج مكان الجمل الواحد والبغل الواحد الى عدة

١٣

اناسي وكان هذا العمل يستفرغ الناس حتى لا يكون فيهم عنه فضل لشيء من
الصناعات مع ما يلحقهم من التعب الفادح في ابدانهم والضيق والكد في
معاشهم فكر يا مفضل في هذه الاصناف الثلاثة من الحيوان وفي خلقها على
ما هي عليه مما فيه صلاح كل واحد منها فالانس لما قدروا ان يكونوا ذوي
ذهن وفطنة وعلاج لمثل هذه الصناعات من البناء والتجارة والصياغة
وغير ذلك خلقت لهم اكف كبار ذوات اصابع غلاظ ليتمكنوا من القبض
على الاشياء واوكدها هذه الصناعات والآلات الجليلة فذوات
يكون معايشها من الصيد خلقت لهم اكف لطاف مدمجة ذوات
براثن ومخاليب تصلح لاخذ الصيد ولا تصلح للصناعات والآكلات النبات
لما قدر ان يكونوا لا ذات صنعة ولا ذات صيد خلقت لبعضها اظلاف
تقيها خشونة الارض اذا حاولت طلب الرعي ولبعضها حوافر ململمة ذوات
قعر كاخمص القدم تنطبق على الارض ليتهيأ للركوب والحمولة تأمل التدبير
في خلق الآكلات اللحم من الحيوان حين جعلت ذوات اسنان حداد و
براثن شداد واشداق وافواه واسعة فانه لما قدر ان يكون طعمها
اللحم خلقت خلقة تشاكل ذلك واعينت بسلاح وادوات تصلح للصيد
وكذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير ومخاليب مهيأة لفعلها ولو
كانت الوحوش ذوات مخالب كانت قد اعطيت ما لا تحتاج اليه لانها
لا تصيد ولا تاكل اللحم ولو كانت السباع ذوات اظلاف كانت قد منعت
ما تحتاج اليه اعني السلاح الذي به تصيد وتتعيش افلا ترى كيف اعطى
كل واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه وطبقته بل ما فيه بقاؤه وصلاحه
انظر الى ذوات الاربع كيف تراها تتبع امهاتها مستقلة بانفسها لا تحتاج
الى الحمل والتربية كما يحتاج اولاد الانس فمن اجل انه ليس عند امهاتها
ما عند امهات البشر من الرفق والعلم بالتربية والقوة عليها بالاكف
والاصابع المهيأة لذلك اعطيت النهوض والاستقلال بانفسها وكذلك
ترى كثيرا من الطير مثل الدجاج والدراج والقبج تدرج وتلقط حين
تنقاب عنها البيض فاما ما كان منها ضعيفا لا نهوض فيه مثل فراخ الحمام
واليمام والحمر فقد جعل في الامهات فضل عطف عليها فصارت تمج الطعام
في افواهها بعد ما توعيه حواصلها فلا تزال تغذوها حتى تستقل بانفسها
ولذلك لم ترزق الحمام فراخا كثيرة مثل ما ترزق الدجاج لتقوى الام على تربية

فراخها فلا تفسد ولا تموت فكل امر معتبط من تدبير الحكيم اللطيف الخبير
انظر الى قوائم الحيوان كيف تأتي ازواجا لتتهيأ للمشي ولو كانت افرادا لم تصلح
لذلك لان الماشي ينقل قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة
ويعتمد على واحدة وذو الاربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من
خلاف لان ذا الاربع لو كان ينقل قائمتين من احد جانبيه ويعتمد على قائمتين
من الجانب الاخر لما ثبت على الارض كما لا يثبت السرير وما اشبهه فصار
ينقل اليمنى من مقاديمه مع اليسرى من مآخيره وينقل الاخريين ايضا من
خلاف فيثبت على الارض ولا يسقط اذا مشى اما ترى الحمار كيف يذلل
للطحن والحمولة وهو يرى الفرس مودعا منعما والبعير لا يطيقه عدة رجال لو استعصى
كيف كان ينقاد للصبي والثور الشديد كيف كان يذعن لصاحبه حتى يضع
النير على عنقه ويحرث به والفرس الكريم يركب السيوف والاسنة بالمواساة
لفارسه والقطيع من الغنم يرعاه رجل واحد ولو تفرقت الغنم فاخذ كل واحد
منها في ناحية لم يلحقها وكذلك جميع اصناف المسخرة للانسان فبم كانت
كذلك الا بانها عدمت العقل والروية فانها لو كانت تعقل وتروي في
الامور كانت خليقة ان تلتوي على الانسان في كثير من مآربه حتى يمتنع
الجمل على قائده والثور على صاحبه وتتفرق الغنم عن راعيها واشباه هذا
من الامور وكذلك هذه السباع لو كانت ذات عقل وروية فتوازرت
على الناس كانت خليقة ان تجتاحهم فمن كان يقوم للاسد والذئاب والنمورة
والدببة لو تعاونت وتظاهرت على الناس افلا ترى كيف حجر ذلك عليها وصارت
مكان ما كان يخاف من اقدامها ونكايتها تهاب مساكن وتحجم عنها ثم لا تظهر و
لا تنتشر لطلب قوتها الا بالليل فهي مع صولتها كالخائف للانس بل مقموعة
ممنوعة منهم ولولا ذلك لساورتهم في مساكنهم وضيقت عليهم ثم جعل في
الكلب من بين هذه السباع عطف على مالكه ومحاماة عنه وحفاظ له
فهو ينتقل على الحيطان والسطوح في ظلمة الليل لحراسة منزل صاحبه وذب
الذعار عنه ويبلغ من محبته لصاحبه ان يبذل نفسه للموت دونه ودون
ماشيته وماله ويألفه غاية الالف الا ليكون حارسا للانسان له عين
بانياب ومخالب ونباح هائل ليذعر منه السارق ويتجنب المواضع التي
يحميها ويخفرها يا مفضل تأمل وجه الدابة كيف هو فانك ترى العينين

اقدامها

يخفرها

شاخصتين

١٤

شاخصتين امامها لتبصر ما بين يديها لئلا تصدم حائطا او تتردى في حفرة
وترى الفم مشقوقا في اسفل الخطم ولو شق كمكان الفم من الانسان في مقدم
الذقن لما استطاع ان يتناول به شيئا من الارض الا ان الانسان لا يتناول
الطعام بفيه ولكن بيده تكرمة له على سائر الآكلات فلما لم يكن للدابة يد
تتناول بها العلف جعل خطمها مشقوقا من اسفله ليقبض به على العلف
ثم تقضمه واعينت بالجحفلة لتتناول بها ما قرب وما بعد اعتبر بذنبها
والمنفعة لها فيه فانه بمنزلة الطبق على الدبر والحياء جميعا يواريهما ويسترهما
ومن منافعها فيه ان ما بين الدبر ومراقي البطن منها وضر يجتمع عليه الذباب
والبعوض فجعل لها الذنب كالمذبة تذب بها عن تلك المواضع ومنها ان
الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فانه لما كان قيامها بالاربع
باسرها وشغلت المقدمتان بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها
في تحريك الذنب راحة وفيه منافع اخرى يقصر عنها الوهم يعرف موقعها
في وقت الحاجة اليها فمن ذلك ان الدابة ترتطم في الوحل فلا يكون شيء اعون
على نهوضها من الاخذ بذنبها وفي شعر الذنب منافع للناس كثيرة يستعملونها
في مآربهم ثم جعل ظهرها مسطحا مبطوحا على قوائم اربع ليتمكن من ركوبها وجعل
حياها بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضربها ولو كان اسفل
البطن كما كان الفرج من المراة لم يتمكن الفحل منها الا ترى انه لا يستطيع
ان ياتيها كفاحا كما ياتي الرجل المراة تامل مشفر الفيل وما فيه من
لطيف التدبير فانه يقوم مقام اليد في تناول العلف والماء وازدرادهما
الى الجوف ولولا ذلك ما استطاع ان يتناول شيئا من الارض لانه
ليست له رقبة يمدها كسائر الانعام فلما عدم العنق اعين مكان
ذلك بالخرطوم الطويل ليسدله فيتناول به حاجته فمن ذا الذي
عوضه مكان العضو الذي عدمه ما يقوم مقامه الا الرؤوف بخلقه
وكيف يكون هذا بالاهمال كما قالت الظلمة فان قال قائل فما باله
لم يخلق ذا عنق كسائر الانعام قيل له ان راس الفيل واذنيه امر عظيم
وثقل ثقيل ولو كان ذلك على عنق عظيمة لهدها واوهنها فجعل
راسه ملصقا بجسمه لكيلا ينال منه ما وصفنا وخلق له مكان العنق

الوضر الدنس

بهما

جوفه

هذا المشق ليتناول به غذاءه فصار مع عدم العنق مستوفيا ما فيه بلوغ حاجته
انظر الآن كيف الانثى من الفيلة في اسفل بطنها فاذا هاجت للضراب
ارتفع وبرز حتى يتمكن الفحل من ضربها فاعتبر كيف جعل حيا الانثى من الفيلة
على خلاف ما عليه في غيرها من الانعام ثم جعلت فيه هذه الخلة ليتهيا للامر
الذي فيه قوام النسل ودوامه فكر في خلق الزرافة واختلاف اعضائها
وشبهها باعضا اصناف من الحيوان فراسها راس فرس وعنقها عنق
جمل واظلافها اظلاف بقرة وجلدها جلد نمر وزعم ناس من الجهال
بالله عز وجل ان نتاجها من فحول شتى قالوا وسبب ذلك ان اصنافا
من حيوان البر اذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة وينتج مثل هذا
الشخص الذي هو كالملتقط من اصناف شتى وهذا جهل من قائله
وقلة معرفته بالباري جل قدسه وليس كل صنف من الحيوان يلقح كل
صنف فلا الفرس يلقح الجمل ولا الجمل يلقح البقر وانما يكون التلقيح من
بعض الحيوان فيما يشاكله ويقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحماره فيخرج
بينهما البغل ويلقح الذئب الضبع فيخرج من بينهما السمع على انه ليس
يكون في الذي يخرج من بينهما عضو من كل واحد منهما كما في الزرافة
عضو من الفرس وعضو من الجمل واظلاف من البقرة بل يكون كالمتوسط
بينهما الممتزج منهما كالذي تراه في البغل فانك ترى راسه واذنيه وكفله
وذنبه وحوافره وسطا بين هذه الاعضا من الفرس والحمار وشحيجه كالممتزج
من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا دليل على انه ليست الزرافة من لقاح اصناف
شتى من الحيوان كما زعم الجاهلون بل هي خلق عجيب من خلق الله للدلالة على
قدرته التي لا يعجزها شي وليعلم انه خالق اصناف الحيوان كلها يجمع بين ما يشا
من اعضائها في ايها شا ويفرق ما شا منها في ايها شا ويزيد في الخلقة ما
شا وينقص منها ما شا دلالة على قدرته على الاشيا وانه لا يعجزه شي اراده
جل وتعالى واما طول عنقها والمنفعة لها في ذلك فان منشاها ومرعاها
في غياطل ذوات اشجار شاهقة ذاهبة طولا في الهوا فهي تحتاج الى طول العنق
لتتناول بفيها اطراف تلك الاشجار فتتقوت من ثمارها تامل خلقة القرد
وشبهه باعضا الانسان في كثير من اعضائه اعني الراس والوجه والمنكبين
والصدر وكذلك احشاوه ايضا شبيهة باحشا الانسان وخص مع ذلك

الزرافة دابة فيها مشابه من البعير والبقر والنمر [illegible] اولها في اللغتين [illegible]

لبست [illegible]

بالذهن

بالذهن والفطنة التي بها يفهم من سائسه ما يومي اليه ويحكي كثيرا مما يرى الانسان
يفعل حتى انه يقرب من خلق الانسان وشمائله في التدبير في خلقته على ما هي عليه
ان يكون عبرة للانسان في نفسه فيعلم انه من طينة البهائم وسنخها اذ كان
يقرب من خلقها هذا القرب وانه لولا فضيلة فضله بها في الذهن والعقل
والنطق كان كبعض البهائم على ان في جسم القرد فضولا اخرى يفرق بينه وبين
الانسان كالخطم والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله وهذا لم يكن مانعا
للقرد ان يلحق بالانسان لو اعطي مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه و
الفصل الفاصل بينه وبين الانسان بالصحة هو النقص في العقل والذهن
والنطق انظر يا مفضل الى لطف الله جل اسمه بالبهائم كيف كسيت اجسامهم
هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف ليقيها من البرد وكثرة الافات
والبست الاظلاف والحوافر والاخفاف ليقيها من الحفا اذ كانت لا ايدي
لها ولا اكف ولا اصابع مهياة للغزل والنسج فكفوا بان جعل كسوتهم في
خلقهم باقية عليهم ما بقوا لا يحتاجون الى تجديدها والاستبدال بها فاما
الانسان فانه ذو حيلة وكف مهياة للعمل فهو ينسج ويغزل ويتخذ لنفسه
الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات
من ذلك انه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما يخرجه اليه الكفاية
ومنها انه يستريح في خلع كسوته اذا شاء ولبسها اذا شاء ومنها
ان يتخذ لنفسه من الكسوة ضروبا لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها
وكذلك يتخذ بالرفق من الصنعة ضروبا من الخفاف والنعال يقي بها قدميه
وفي ذلك معايش لمن يعمله من الناس ومكاسب يكون فيها معايشهم و
منها اقواتهم واقوات عيالهم فصار الشعر والوبر والصوف تقوم للبهائم
مقام الكسوة والاظلاف والحوافر والاخفاف مقام الحذا فكر يا مفضل
في خلقة عجيبة جعلت في البهائم فانهم يوارون انفسهم اذا ماتوا
كما يواري الناس موتاهم والا فاين جيف هذه الوحوش والسباع و
غيرها لا يرى منها شي وليست قليلة فتخفى لقلتها بل لو قال قائل انها
اكثر من الناس لصدق فاعتبر ذلك بما تراه في الصحاري والجبال
من اسراب الظبا والمها والحمير والوعول والايايل وغير ذلك من الوحوش
واصناف السباع من الاسد والضباع والذياب والنمور وغيرها

المهاة البقرة الوحشية والجمع مهاً

وضروب الهوام والحشرات ودواب الارض وكذلك اسراب الطير من الغربان
والقطا والاوز والكراكي والحمام وسباع الطير جميعا وكلها لا نرى
منها اذا ماتت الا الواحد بعد الواحد يصيده قانص او يفترسه سبع
فاذا احسوا بالموت كمنوا في مواضع خفية فيموتون فيها ولولا ذلك
لامتلات الارض من الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهوى ويحدث
الامراض والوباء فانظر الى هذا الذي يخلص اليه الناس وعملوه بالتمثيل
الاول الذي مثل لهم كيف جعل طبعا وادكارا في البهائم وغيرها ليسلم
الناس من معرة ما يحدث عليهم من الامراض والفساد فكر يا مفضل في
الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها بالطبع والخلقة لطفا من الله
عز وجل لهم لئلا يخلو من نعمه جل وعز احد من خلقه لا بعقل و
روية فان الايل ياكل الحيات فيعطش عطشا شديدا فيمتنع من
شرب الماء خوفا من ان يدب السم في جسمه فيقتله ويقف
على الغدير وهو مجهود عطشا فيعج عجيجا عاليا ولا يشرب منه
ولو شرب لمات من ساعته فانظر الى ما جعل من طباع هذه البهيمة
من تحمل الظمأ الغالب خوفا من المضرة في الشرب وذلك مما لا يكاد
الانسان العاقل المميز يضبطه من نفسه والثعلب اذا اعوزه الطعم
تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتا فاذا وقعت عليه لتنهشه
وثب عليها فاخذها فمن اعان الثعلب العديم النطق والروية بهذه الحيلة
الا من توكل بتوجيه الرزق له من هذا وشبهه فانه لما كان الثعلب
يضعف عن كثير مما يقوى عليه السباع من مساورة الصيد اعين بالدهاء
والفطنة والاحتيال لمعاشه والدلفين يلتمس صيد الطير فيكون
حيلته في ذلك ان ياخذ السمك فيقتله ويشرحه حتى يطفو على
الماء ثم يكمن تحته ويثور الماء الذي عليه حتى لا يتبين شخصه فاذا
وقع الطير على السمك الطافي وثب اليها فاصطادها فانظر الى هذه
الحيلة كيف جعلت طبعا في هذه البهيمة لبعض المصلحة قال المفضل
فقلت خبرني يا مولاي عن التنين والسحاب فقال عليه السلام ان السحاب
كالموكل به يختطفه حيثما ثقفه كما يختطف حجر المغناطيس الحديد

فهو

خلص اليه وصل

عج عجيجا صاح ورفع صوته

اعوزه الاحتياج

ساوره اي وثب

١٦

فهو لا يطلع راسه في الارض خوفا من السحاب ولا يخرج الا في القيظ مرة
اذا صحت السماء فلم يكن بها نكتة من غيمة قلت فلم وكل السحاب بالتنين يرصده
ويختطفه اذا وجده قال ليدفع عن الناس مضرته قال المفضل فقلت
قد وصفت لي يا مولاي من امر البهائم ما فيه معتبر لمن اعتبر فصف لي الذرة
الحقيرة الصغيرة هل تجد فيها نقصا عما فيه صلاحها فمن اين هذا التقدير
والصواب في خلق الذرة الا من التدبير القائم في صغير الخلق وكبيره
انظر الى النمل واحتشاده في جمع القوت واعداده فانك ترى الجماعة منها
اذا نقلت الحب الى زبيتها بمنزلة جماعة من الناس ينقلون الطعام او
غيره بل للنمل في ذلك من الجد والتشمير ما ليس للناس مثله اما تراهم يتعاونون
على النقل كما يتعاون الناس على العمل ثم يعمدون الى الحب فيقطعونه
قطعا لكيلا ينبت فيفسد عليهم فان اصابه ندى اخرجوه فنشروه حتى
يجف ثم لا يتخذ النمل الزبية الا في نشز من الارض كيلا يفيض السيل
فيغرقها فكل هذا منه بلا عقل ولا روية بل خلقة خلق عليها لمصلحة
لطفا من الله جل وعز انظر الى هذا الذي يقال له الليث وتسميه العامة
اسد الذباب وما اعطي من الحيلة والرفق في معاشه فانك تراه حين
يحس بالذباب قد وقع قريبا منه تركه مليا حتى كانه موات
لا حراك به فاذا راى الذباب قد اطمان وغفل عنه دب دبيبا دقيقا
حتى يكون منه بحيث يناله وثبته ثم يثب عليه فياخذه فاذا اخذه
اشتمل عليه بجسمه كله مخافة ان ينجو منه فلا يزال قابضا عليه حتى يحس
بانه قد ضعف واسترخى ثم يقبل عليه فيفترسه ويحيا منه فاما
العنكبوت فانه ينسج ذلك النسج فيتخذه شركا ومصيدة للذباب ثم
يكمن في جوفه فاذا انشب فيه الذباب احال عليه يلدغه ساعة بعد ساعة
فيعيش بذلك منه فكذلك يحكي صيد الكلاب والفهود وهكذا يحكي
صيد الاشراك والحبائل فانظر الى هذه الدويبة الضعيفة كيف
جعل في طبعها ما لا يبلغه الانسان الا بالحيلة واستعمال الآلات فيها
فلا تزدر بالشيء اذا كانت العبرة فيه واضحة كالذرة والنملة وما اشبه ذلك
فان المعنى النفيس قد يمثل بالشيء الحقير فلا يضع منه ذلك كما
لا يضع من الدينار وهو من ذهب ان يوزن بمثقال من حديد تامل يا

مفضل

احال عليه اي سلط

جسم الطائر وخلقته فانه حين قدر ان يكون طائرا في الجو خفف جسمه وادمج خلقه
فاقتصر به من القوائم الاربع على اثنتين ومن الاصابع الخمس على اربع ومن منفذين
للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه ان يخرق
الهواء كيف ما اخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه
وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسي
كله الريش ليتداخله الهواء فيقله ولما قدر ان يكون طعمه الحب واللحم يبلعه
بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الاسنان وخلق له منقار صلب جاس يتناول
به طعمه فلا ينسحج من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم ولما عدم الاسنان
وصار يزدرد الحب صحيحا واللحم غريضا اعين بفضل حرارة في الجوف
تطحن له الطعم طحنا يستغني به عن المضغ واعتبر ذلك بان عجم العنب وغيره
يخرج من اجواف الانس صحيحا ويطحن في اجواف الطير لا يرى له اثر ثم جعل
مما يبيض بيضا ولا يلد ولادة لكيلا يثقل عن الطيران فانه لو كانت
الفراخ في جوفه تمكث حتى تستحكم لاثقلته وعاقته عن النهوض والطيران
فجعل كل شيء من خلقه مشاكلا للامر الذي قدر ان يكون عليه ثم الطائر
السائح في هذا الجو يقعد على بيضه فيحضنه اسبوعا وبعضها
اسبوعين وبعضها ثلاثة اسابيع حتى يخرج الفرخ من البيضة ثم يقبل عليه
فيزقه الريح ليتسع حوصلته للغذاء ثم يربيه ويغذيه بما يعيش به فمن
كلفه ان يلقط الطعم ويستخرجه بعد ان يستقر في حوصلته ويغذو به
فراخه ولاي معنى يحتمل هذه المشقة وليس بذي روية ولا تفكر ولا
يامل في فراخه ما يؤمل الانسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر
فهذا فعل يشهد بانه معطوف على فراخه لعلة لا يعرفها ولا يفكر فيها
وهي دوام النسل وبقاؤه لطفا من الله تعالى ذكره انظر الى الدجاجة كيف
تهيج لحضن البيض والتفريخ وليس لها بيض مجتمع ولا وكر موطى بل
تنبعث وتنتفخ وتقوقي وتمتنع من الطعم حتى يجمع لها البيض فتحضنه
وتفرخ فلم كان ذلك منها الا لاقامة النسل ومن اخذها باقامة النسل ولا
روية ولا تفكير لولا انها مجبولة على ذلك اعتبر بخلق البيضة وما فيها من
المح الاصفر الخاثر والماء الابيض الرقيق فبعضه لينتشر منه الفرخ وبعضه
ليغتذي به الى ان ينقاب عنه البيضة وما في ذلك من التدبير فانه لو كان

نشوء الفرخ في تلك القشرة المستحصفة التي لا مساغ لشيء اليها جعل معه
في جوفها من الغذاء ما يكتفي به الى وقت خروجه منها كمن يحبس في حبس حصين
لا يوصل الى من فيه شيء فيجعل معه من القوت ما يكتفي به الى وقت خروجه منه
فكر في حوصلة الطائر وما قدر له فان مسلك الطعم الى القانصة ضيق
لا ينفذ فيه الطعام الا قليلا قليلا فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية حتى تصل
الاولى الى القانصة لطال عليه ومتى كان يستوفي طعمه فانما يختلسه اختلاسا
لشدة الحذر فجعلت الحوصلة كالمخلاة المعلقة امامه ليوعي فيها ما ادرك من
الطعم بسرعة ثم ينفذه الى القانصة على مهل وفي الحوصلة ايضا خلة اخرى
ان من الطائر ما يحتاج ان يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب اسهل عليه
قال المفضل فقلت ان قوما من المعطلة يزعمون ان اختلاف الالوان والاشكال
في الطير انما يكون من قبل امتزاج الاخلاط واختلاف مقاديرها بالمرج والاهمال
فقال يا مفضل هذا الوشي الذي تراه في الطواويس والدراج والتدارج
على استواء ومقابلة كنحو ما يخط بالاقلام كيف ياتي به الامتزاج المهمل
على شكل واحد لا يختلف لو كان بالاهمال لعدم الاستواء ولو كان مختلفا
تامل ريش الطير كيف هو فانك تراه منسوجا كنسج الثوب الرقيق من سلوك
دقاق قد الف بعضه الى بعض كتاليف الخيط الى الخيط والشعرة الى الشعرة
ثم ترى ذلك النسج اذا مددته ينفتح قليلا ولا ينشق لتداخله الريح
فيقل الطائر اذا طار وترى في وسط الريشة عمودا غليظا متينا قد نسج
عليه الذي هو مثل الشعر ليمسكه بصلابته وهو القصبة التي في وسط الريشة
وهو مع ذلك اجوف ليخف على الطائر ولا يعوقه عن الطيران هل رايت
يا مفضل هذا الطائر الطويل الساقين وعرفت ما له من المنفعة
في طول ساقيه فانه اكثر ذلك في ضحضاح من الماء فتراه بساقين طويلين
كانه ربيئة فوق مرقب وهو يتامل ما يدب في الماء فاذا راى شيئا مما
يتقوت به خطا خطوات رقيقا حتى يتناوله ولو كان قصير الساقين كان
يخطو نحو الصيد ليأخذه فيصيب بطنه الماء فيثور ويذعر منه فيتفرق عنه فخلق
له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه تامل ضروب
التدبير في خلق الطائر فانك تجد كل طائر طويل الساقين طويل العنق وذلك
ليتمكن من تناول طعمه من الارض ولو كان طويل الساقين قصير العنق لما استطاع

ماء ضحضاح اي قريب القعر
المرقب والمرقبة الموضع المشرف
ق

ان يتناول شيئا من الارض وربما اعين على طول العنق وطول المناقير ليزداد
الامر عليه سهولة وامكانا افلا ترى انك لا تفتش شيئا من الخلقة الا وجدته
على غاية الصواب والحكمة انظر الى العصافير كيف تطلب اكلها بالنهار فلا
تفقده ولا هي تجده مجموعا معدا بل تناله بالحركة والطلب وكذلك الخلق
كله فسبحان من قدر الرزق كيف قدره فلم يجعل مما لا يقدر عليه اذ جعل
بالخلق حاجة اليه ولم يجعله مبذولا ينال بالهوينا اذ كان لا صلاح في ذلك
فانه لو كان يوجد مجموعا معدا كانت البهايم تتقلب عليه ولا تنقلع عنه حتى
تبشم فتهلك وكان الناس ايضا يصيرون بالفراغ الى غاية الاشر والبطر
حتى يكثر الفساد وتظهر الفواحش علمت ما طعم هذه الاصناف من
الطير التي لا تخرج الا بالليل كمثل البوم والهام والخفاش قلت لا يا مولاي
قال ان معاشها من ضروب تنتشر في هذا الجو من البعوض والفراش واشباه
الجراد واليعاسيب وذلك ان هذه الضروب مبثوثة في الجو لا يخلو منها
موضع واعتبر ذلك بانك اذا وضعت سراجا بالليل في سطح او عرصة دار
اجتمع عليه من هذا شي كثير فاني ذلك كله الا من القرب تلك الساعة من موضع
بعيد وكيف يبصر من ذلك البعيد سراجا محفوفا بالدور فيقصد عليه
ان هذه عيانا تتهافت على السراج من قرب فيدلك ذلك على انها منتشرة
في كل موضع من الجو فهذه الاصناف من الطير تلتمسها اذا خرجت فتتقوت
بها فانظر كيف وجه الرزق لهذه الطيور التي لا تخرج الا بالليل من هذه الضروب
المنتشرة في الجو واعرف مع ذلك المعنى في خلق هذه الضروب التي عسى ان
يظن ظان انها فضل لا معنى له خلق الخفاش خلقة عجيبة بين خلقة الطير
وذوات الاربع بل هو الى ذوات الاربع اقرب وذلك انه ذو اذنين ناشزتين
واسنان ووبر وهو يلد ولادا ويرضع ويبول ويمشي اذا مشى على اربع
وكل هذا خلاف صفة الطير ثم هو ايضا مما يخرج بالليل ويتقوت بما يسري
في الجو من الفراش وما اشبهه وقد قال قائلون انه لا طعم للخفاش وان
غذاه من النسيم وحده وذلك يفسد ويبطل من جهتين احدهما خروج
ما يخرج منه من الثفل والبول فان هذا لا يكون من غير طعم والاخر انه ذو اسنان
ولو كان لا يطعم شيئا لم يكن للاسنان معنى وليس في الخلقة شي لا معنى له
واما المارب فيه فمعروفة حتى ان زبله يدخل في بعض الاعمال ومن اعظم

لنسم مركز السلكة
نسخ نوح ن

الادب فيه خلقته العجيبة الدالة على قدرة الخالق جل ثناوه وتصرفها فيما شا كيف شا
لضرب من المصلحة فاما الطاير الصغير الذي يقال له ابن تمرة فقد عشش في بعض
الاوقات في بعض الشجر فنظر الى حية عظيمة قد اقبلت نحو عشه فاغرة فاها تبتلعه
فبينما هو يتقلب ويضطرب في طلب حيلة منها اذ وجد حسكة فحملها فالقاها في
فم الحية فلم تزل الحية تلتوي وتتقلب حتى ماتت افرايت لو لم اخبرك بذلك كان
يخطر ببالك او ببال غيرك انه يكون من حسكة مثل هذه المنفعة العظيمة او يكون
من طاير صغير او كبير مثل هذه الحيلة اعتبر بهذا وكثير من الاشيا تكون فيها
منافع لا تعرف الا بحادث يحدث به او خبر يسمع به انظر الى النحل واحتشاده
في صنعة العسل وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك من دقايق
الفطنة فانك اذا تاملت العمل رايته عجيبا لطيفا واذا رايت المعمول وجدته
عظيما شريفا موقعه من الناس واذا رجعت الى الفاعل الفيته غبيا
جاهلا بنفسه فضلا عما سوى ذلك ففي هذا اوضح الدلالة على ان الصواب
والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الناس
انظر الى هذا الجراد ما اضعفه واقواه فانك اذا تاملت خلقه رايته كاضعف الاشيا
وان دلفت عساكره نحو بلد من البلدان لم يستطع احد ان يحميه منه الا ان ملكا
من ملوك الارض لو جمع خيله ورجله ليحمي بلاده من الجراد لم يقدر على ذلك افليس من
الدلايل على قدرة الخالق ان يبعث اضعف خلقه الى اقوى خلقه فلا يستطيع دفعه
انظر اليه كيف ينساب على وجه الارض مثل السيل فيغشى السهل والجبل والبدو
والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته فلو كان هذا مما يصنع بالايدي متى
كان يجتمع منه هذه الكثرة وفي كم من سنة كان يرتفع فاستدل بذلك على
القدرة التي لا يوودها شي ولا يكثر عليها تامل خلق السمك ومشاكلته للامر الذي
قدر ان يكون عليه فانه خلق غير ذي قوايم لانه لا يحتاج الى المشي اذ كان مسكنه الما
وخلق غير ذي رية لانه لا يستطيع ان يتنفس وهو منغمس في اللجة وجعلت له مكان
القوايم اجنحة شداد يضرب بها في جانبيه كما يضرب الملاح بالمجاذيف من جانبي
السفينة وكسي جسمه قشورا متانا متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه
من الافات فاعين بفضل حس في الشم لان بصره ضعيف والما يحجبه فصار يشم
الطعم من البعد البعيد فينتجعه والا فكيف يعلم به وبموضعه واعلم ان من فيه الى
صماخيه منافذ فهو يعب الما بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح الى ذلك كما
يتروح غيره من الحيوان الى تنسم هذا النسيم فكر الان في كثرة نسله وما خص

ولغت الكتيبة والحرب
تقدمت ن

تساب الما ورسال ن

من ذلك فانك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة والعلة في
ذلك ان يتسع لما يغتذي به من اصناف الحيوان فان اكثرها يأكل السمك حتى ان
السباع ايضا في حافات الاجام عاكفة على الماء ايضا كي ترصد السمك فاذا مر بها خطفته
فلما كانت السباع تأكل السمك والطير يأكل السمك والناس يأكلون السمك والسمك
يأكل السمك كان من التدبير فيه ان يكون على ما هو عليه من الكثرة فاذا اردت
ان تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين فانظر الى ما في البحار من ضروب
السمك ودواب الماء والاصداف والاصناف التي لا تحصى ولا تعرف منافعها
الا الشيء بعد الشيء يدركه الناس باسباب تحدث مثل القرمز فانه انما عرف الناس
صبغه بان كلبة تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئا من الصنف المسمى الحلزون
فاكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس الى حسنه فاتخذوه صبغا واشباه
هذا مما يقف الناس عليها حالا بعد حال وزمانا بعد زمان قال المفضل وحان
وقت الزوال فقام مولاي الى الصلوة وقال بكر الي غدا ان شاء الله فانصرفت
وقد تضاعف سروري بما عرفنيه مبتهجا بما منحنيه حامدا لله على ما اتانيه
فبت ليلتي مسرورا مبتهجا قال المفضل فلما كان اليوم الثالث بكرت الى
مولاي فاستؤذن لي فدخلت فاذن لي بالجلوس فجلست فقال عليه السلام 2
الحمد لله اصطفانا ولم يصطف علينا اصطفانا بعلمه وايدنا بحلمه من شذ
عنا فالنار مأواه ومن تفيأ بظل دوحتنا فالجنة مثواه قد شرحت لك
يا مفضل خلق الانسان وما دبر به وتنقله في احواله وما
فيه من الاعتبار وشرحت لك امر الحيوان وانا ابتدئ الآن بذكر السماء
والشمس والقمر والنجوم والفلك والليل والنهار والحر والبرد والرياح والجواهر
الاربعة الارض والماء والهواء والنار والمطر والصخر والجبال والطين والحجارة
والمعادن والنبات والنخل والشجر وما في ذلك من الادلة والعبر فكر في لون السماء
وما فيه من صواب التدبير فان هذا اللون اشد الالوان موافقة للبصر وتقوية حتى ان
من صفات الاطباء لمن اصابه شيء اضر ببصره ادمان النظر الى الخضرة وما قرب
منها الى السواد وقد وصف الحذاق منهم لمن كل بصره الاطلاع في اجانة خضراء
مملوءة ماء فانظر كيف جعل الله جل وتعالى اديم السماء بهذا اللون الاخضر الى
السواد ليمسك الابصار المتقلبة عليه فلا ينكا فيها بطول مباشرتها له فصار
هذا الذي ادركه الناس بالفكر والروية والتجارب يوجد مفروغا منه في الخلقة
حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون ويفكر فيها الملحدون قاتلهم الله انى يؤفكون

فكر يا مفضل

فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها لاقامة دولتي النهار والليل فلولا طلوعها
لبطل امر العالم كله فلم يكن الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون في امورهم
والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه والارب في
طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الاطناب في ذكره والزيادة في شرحه بل تأمل
المنفعة في غروبها فلولا غروبها لم يكن للناس هدء ولا قرار مع عظم حاجتهم
الى الهدء والراحة لسكون ابدانهم وجموم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة
لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة
العمل ومطاولته على ما يعظم نكايته في ابدانهم فان كثيرا من الناس لولا جثوم
هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدء ولا قرار حرصا على الكسب والجمع والادخار
ثم كانت الارض تستحمي بدوام الشمس بضيائها وتحمي كل ما عليها من حيوان و
نبات فقدرها الله بحكمته وتدبيره تطلع وقتا وتغرب وقتا بمنزلة سراج
يرفع لاهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدوا و
يقروا فصار النور والظلمة مع تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه
صلاح العالم وقوامه ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة
هذه الازمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة ففي
الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات فيتولد فيهما مواد الثمار ويستكثف
الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد ابدان الحيوان وتقوى وفي
الربيع تتحرك وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وتنور الاشجار
ويهيج الحيوان للسفاد وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار وتتحلل
فضول الابدان ويجف وجه الارض فتهيأ للبناء والاعمال وفي الخريف
يصفو الهواء وترتفع الامراض وتصح الابدان ويمتد الليل فيمكن فيه
بعض الاعمال لطوله ويطيب الهواء فيه الى مصالح اخرى لو تقصيت لذكرها لطال
فيها الكلام فكر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لاقامة دور السنة
وما في ذلك من التدبير فهو الدور الذي تصح به الازمنة الاربعة من السنة الشتاء
والربيع والصيف والخريف وتستوفيها على التمام وفي هذا المقدار من دوران
الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهي الى غاياتها ثم تعود فيستأنف النشو
والنمو الا ترى ان السنة مقدار مسير الشمس من الحمل الى الحمل فبالسنة واخواتها

نكاية قتل وجرح ق
جثم [illegible] جثوما [illegible] ١٢

حدم النار وتحرك شدة اضطرامها
وحميها واحتدم عليه
غيظا تحرق
ق

ليكال الزمان من لدن خلق الله العالم الى كل وقت وعصر من غابر الايام وبها يحسب الناس
الاعمار والاوقات الموقتة للديون والاجارات والمعاملات وغير ذلك من
امورهم وبمسير الشمس تكمل السنة ويقوم حساب الزمان على الصحة انظر
الى شروقها على العالم كيف دبر ان يكون فانها لو كانت تبزغ في موضع
من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها الى كثير من الجهات
لان الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فجعلت تطلع في اول النهار من
المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى
جهة بعد جهة حتى تنتهي الى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في اول
النهار فلا يبقى موضع من المواضع الا اخذ بقسطه من المنفعة فيها والارب
التي قدرت له ولو تخلفت مقدار عام او بعض عام كيف كان يكون حالهم بل
كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء افلا ترى كيف الناس هذه الامور الجليلة
التي لم يكن عندهم فيها حيلة فصارت تجري على مجاريها لا تعتل ولا تتخلف
عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة
تستعملها العامة في معرفة الشهور ولا يقوم عليه حساب السنة لان دوره
لا يستوفي الازمنة الاربعة ونشوء الثمار وتصرمها ولذلك صارت شهور
القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها وصار الشهر من شهور
القمر ينتقل فيكون مرة بالشتاء ومرة بالصيف فكر في انارته في ظلمة
الليل والارب في ذلك فانه مع الحاجة الى الظلمة لهدو الحيوان وبرد الهواء
على النبات لم يكن صلاح في ان يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن
فيه شي من العمل لانه ربما احتاج الناس الى العمل بالليل لضيق الوقت
عليهم في بعض الاعمال في النهار ولشدة الحر وافراطه فيعمل في ضوء القمر
اعمالا شتى كحرث الارض وضرب اللبن وقطع الخشب وما اشبه ذلك
فجعل ضوء القمر معونة للناس على معايشهم اذا احتاجوا الى ذلك وانسا للسائرين
وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ونقص مع ذلك من نور الشمس وضيائها
لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار ويمتنعون من الهدو
والقرار فيهلكهم ذلك وفي تصرف القمر خاصة في مهله ومحاقه وزيادته
ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة الله خالقه المصرف له هذا التصريف

لصلاح

لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون فكر يا مفضل في النجوم واختلاف مسيرها
فبعضها لا يفارق مراكزها من الفلك ولا يسير الا مجتمعة وبعضها
مطلقة تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها فكل واحد منها يسير
سيرين مختلفين احدهما عام مع الفلك نحو المغرب والآخر خاص
لنفسه نحو المشرق كالنملة التي تدور على الرحا فالرحا تدور ذات اليمين
والنملة تدور ذات الشمال والنملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفتين
احديهما بنفسها فتتوجه امامها والاخرى مستكرهة مع الرحا تجذبها
الى خلفها فاسال الزاعمين ان النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال من
غير عمد ولا صانع لها ما منعها ان تكون كلها راتبة او تكون كلها منتقلة
فان الاهمال معنى واحد فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن
وتقدير ففي هذا بيان ان مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير
وحكمة وتقدير وليس باهمال كما تزعم المعطلة فان قال قائل ولم صار بعض النجوم
راتبا وبعضها منتقلا قلنا انها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالات التي
يستدل بها من تنقل المنتقلة ومسيرها في كل برج من البروج كما قد يستدل
على اشياء مما يحدث في العالم بتنقل الشمس والنجوم في منازلها ولو كانت كلها
منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يوقف عليه لانه انما يوقف
بمسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الراتبة كما يستدل على سير السائر
على الارض بالمنازل التي يجتاز عليها ولو كان تنقلها بحال واحدة لاختلط
نظامها وبطلت المآرب فيها ولساغ لقائل ان يقول ان كينونتها على
حال واحدة توجب عليها الاهمال من الجهة التي وصفنا ففي اختلاف سيرها
وتصرفها وما في ذلك من المآرب والمصلحة ابين دليل على العمد والتدبير فيها
فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا
والجوزا والشعريين وسهيل فانها لو كانت باسرها تظهر في وقت واحد
لم يكن لواحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض
امورهم كمعرفتهم الان بما يكون من طلوع الثور والجوزا اذا طلعت واحتجابها
اذا احتجبت فصار ظهور كل واحد واحتجابه في وقت غير وقت الآخر لينتفع
الناس بما يدل عليه كل واحد منها على حدته وكما جعلت الثريا واشباهها تظهر
حينا وتحتجب حينا لضرب من المصلحة كذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب

آخر من المصلحة فانها اعلام التي يهتدي بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة
وكذلك انها لا تغيب ولا تتوارى كلها فهم ينظرون اليها متى ارادوا ان يهتدوا بها الى حيث
شاؤوا وصار الامران جميعا على اختلافهما موجهين نحو الارب والمصلحة وفيهما
مآرب اخرى علامات ودلالات على اوقات كثيرة من الاعمال كالزراعة والغرس
والسفر في البر والبحر واشياء مما يحدث في الازمنة من الامطار والرياح والحر
والبرد وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة
مع ما في ترددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من العبر
فانها تسير اسرع السير واحثه ارايت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب
منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه الم تكن ستخطف الابصار
بوهجها وشعاعها كالذي يحدث احيانا من البروق اذا توالت واضطرمت
في الجو وكذلك ايضا لو ان اناسا كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم
دورانا حثيثا لحارت ابصارهم حتى يخروا لوجوههم فانظر كيف قدر
ان يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضر في الابصار وتنكأ فيها وباسرع
السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها وجعل فيها جزء يسير من
الضوء ليسد مسد الاضواء اذا لم يكن قمر ويمكن فيه الحركة اذا حدثت
ضرورة كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج الى التجافي في جوف الليل
فان لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع ان يبرح مكانه فتامل اللطف
والحكمة في هذا التقدير حين جعل للظلمة دولة ومدة لحاجة اليها وجعل
خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا فكر في هذا الفلك بشمسه
وقمره ونجومه وبروجه تدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم بهذا
التقدير والوزن لما في اختلاف الليل والنهار وهذه الازمان الاربعة
من التنبيه على الارض وما عليها من اصناف الحيوان والنبات من ضروب
المصلحة كالذي بينت لك آنفا وهل يخفى على ذي لب ان هذا التقدير
تقدير مقدر وصواب وحكمة من مقدر حكيم فان قال قائل ان هذا شيء
اتفق ان يكون هكذا فما منعه ان يقول مثل هذا في دولاب تراه يدور
ويسقي حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء من آلته مقدرا بعضه يلقى
بعضا على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها وبم كانت تثبت هذا القول
لو قاله وما ترى الناس كانوا قائلين له لو سمعوه منه افينكر ان يقول في دولاب

خسيس

خسيس بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الارض انه كان بلا صانع مقدر
ويقدر ان يقول في هذا الدولاب الاعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها اذهان
البشر لصلاح جميع الارض وما عليها انه شيء اتفق ان يكون بلا صنعة ولا تقدير ولو
اعتل هذا الفلك كما تعتل الآلات التي تتخذ للصناعات وغيرها اي شيء كان عند
الناس من الحيلة في اصلاحه فكر يا مفضل في مقادير النهار والليل كيف وقعت على
ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما اذا امتد الى خمس عشرة ساعة
لا يجاوز ذلك افرايت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة او مائتي ساعة
الم يكن في ذلك بوار كل ما في الارض من حيوان ونبات اما الحيوان فكان لا يهدأ
ولا يقر طول هذه المدة ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار
ولا الانسان كان يفتر عن العمل والحركة وكان ذلك سيهلكها اجمع ويؤديها
الى التلف واما النبات فكان يطول عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يجف
ويحترق وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق اصناف
الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش حتى تموت جوعا وتخمد الحرارة الطبيعية
من النبات حتى يعفن ويفسد كالذي تراه يحدث على النبات اذا كان في موضع
لا تطلع عليه الشمس اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران العالم ويتصرفان هذا التصرف
في الزيادة والنقصان والاعتدال لاقامة هذه الازمنة الاربعة من السنة و
ما فيهما من المصالح ثم هما بعد دباغ الابدان التي عليها بقاؤها وفيهما صلاحها
فانه لولا الحر والبرد وتداولهما الابدان لفسدت واخوت وانتكثت
فكر في دخول احدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل فانك ترى احدهما
ينقص شيئا بعد شيء والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في
الزيادة والنقصان ولو كان دخول احدهما على الآخر مفاجأة لاضر ذلك
بالابدان واسقمها كما ان احدكم لو خرج من حمام حار الى موضع البرودة لضره
ذلك واسقم بدنه فلم جعل الله عز وجل هذا الترسل في الحر والبرد الا للسلامة
من ضرر المفاجأة ولم جرى الامر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجأة لولا
التدبير في ذلك فان زعم زاعم ان هذا الترسل في دخول الحر والبرد انما
يكون لابطاء مسير الشمس في الارتفاع والانحطاط سئل عن العلة في ابطاء مسير الشمس
في ارتفاعها وانحطاطها فان اعتل في الابطاء ببعد ما بين المشرقين سئل عن
العلة في ذلك فلا تزال هذه المسألة ترقى معه الى حيث رقي من هذا القول حتى
استقر على العمد والتدبير لولا الحر لما كانت الثمار الجاسية المرة تنضج
فتلين وتعذب حتى يتفكه بها رطبة ويابسة ولولا البرد لما كان الزرع
يفرخ هكذا ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت وما يرد في الارض للبذر

لا يجمع ما ذا دق

الا ترى ما في الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة وكلاهما مع غنائه والمنفعة فيه يولم
الابدان ويمضها وفي ذلك عبرة لمن فكر ودلالة على انه من تدبير الحكيم في مصلحة العالم و
ما فيه وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها الست ترى ركودها اذا ركدت كيف
يحدث الكرب الذي يكاد ان ياتي على النفوس ويمرض الاصحاء وينهك المرضى ويفسد
الثمار ويعفن البقول ويعقب الوباء في الابدان والافة في الغلات ففي هذا
بيان ان هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق وانبئك عن الهواء بخلة
اخرى فان الصوت اثر يؤثره اصطكاك الاجسام في الهواء والهواء يؤديه الى المسامع والناس
يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم فلو كان اثر هذا الكلام يبقى
في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلا العالم منه فكان يكربهم ويفدحهم
فكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به الى اكثر مما يحتاج اليه في تجديد القراطيس
لان ما يلفظ من الكلام اكثر مما يكتب فجعل الخلاق الحكيم جل قدسه هذا الهواء قرطاسا
خفيا يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم ثم يمحى فيعود جديدا نقيا ويحمل ما حمل
ابدا بلا انقطاع وحسبك بهذا النسيم المسمى هواء عبرة وما فيه من المصالح فانه
حياة هذه الابدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر
من روحه وفيه تطرد هذه الاصوات فيؤدي بها من البعد البعيد وهو الحامل
لهذه الاراييح ينقلها من موضع الى موضع الا ترى كيف تاتيك الريح من حيث تهب
الريح فكذلك الصوت وهو القابل لهذا الحر والبرد اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه
ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروح عن الاجسام وتزجي السحاب من موضع الى
موضع ليعم نفعه حتى يستكثف فيمطر وتفضه حتى يستخف فيتفشى وتلقح الشجر
وتسير السفن وترخي الاطعمة وتبرد الماء وتشب النار وتجفف الاشياء
الندية وبالجملة انها تحيي كل ما في الارض فلولا الريح لذوى النبات ومات الحيوان و
الاشياء وفسدت فكر يا مفضل فيما خلق الله عز وجل عليه هذه الجواهر الاربعة
ليتسع ما يحتاج اليه منها فمن ذلك سعة هذه الارض وامتدادها فلولا ذلك
كيف كانت تتسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اخشابهم واحطابهم
والعقاقير العظيمة والمعادن الجسيمة غناؤها ولعل من ينكر هذه الفلوات
الخاوية والقفار الموحشة فيقول ما المنفعة فيها فهي ماوى هذه الوحوش
ومحالها ومرعاها ثم فيها بعد متنفس ومضطرب للناس اذا احتاجوا الى
الاستبدال باوطانهم فكم بيداء وكم فدفد حالت قصورا وجنانا بانتقال
الناس اليها وحلولهم فيها ولولا سعة الارض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار
ضيق لا يجد مندوحة عن وطنه اذا حزبه امر يضطره الى الانتقال عنه ثم فكر في
خلق هذه الارض على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكنة فيكون موطنا مستقرا
للاشياء فيتمكن الناس من السعي عليها في مآربهم والجلوس عليها لراحتهم و

اللزوم

٢٢

النوم لهدوئهم والاتقان لاعمالهم فانها لو كانت رجراجة متكفئة لم يكونوا يستطيعون
ان يتقنوا البناء والتجارة والصناعة وما اشبه ذلك بل كانوا لا يتهنون بالعيش
والارض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل على قلة
مكثها حتى يصيروا الى ترك منازلهم والهرب عنها فان قال قائل فلم صارت
هذه تزلزل قيل له ان الزلزلة وما اشبهها موعظة وترهيب يرهب بها
الناس ليرعووا وينزعوا عن المعاصي وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في ابدانهم
واموالهم يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم ويدخر لهم ان صلحوا
من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعدله شيء من امور الدنيا وربما عجل ذلك
في الدنيا اذا كان ذلك صلاحا للعامة والخاصة ثم ان الارض في طباعها
الذي طبعها الله تعالى باردة يابسة وكذلك الحجارة وانما الفرق بينها وبين
الحجارة فضل يبس في الحجارة افرايت لو ان اليبس افرط على الارض قليلا حتى يكون
حجرا صلدا اكانت تنبت هذا النبات الذي به حيوة الحيوان وكان يمكن بها
حرث او بناء افلا ترى كيف تنقصت من يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه
من اللين والرخاوة لتتهيا للاعتماد ومن تدبير الحكيم جل وعلا في خلقة
الارض ان مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب فلم يجعل الله عز وجل كذلك
الا لينحدر الماء على وجه الارض فيسقيها ويرويها ثم يفيض آخر ذلك الى البحر
فكانما يرفع احد جانبي السطح ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه
كذلك جعل مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب لهذه العلة بعينها ولولا
ذلك لبقي الماء متحيرا على وجه الارض وكان يمنع الناس من اعمالها ويقطع
الطرق والمسالك ثم الماء لولا كثرته وتدفقه في العيون والاودية و
الانهار لضاق عما يحتاج الناس اليه لشربهم وشرب انعامهم ومواشيهم
وسقي زروعهم واشجارهم واصناف غلاتهم وشرب ما يرده من الوحش
والطير والسباع وتتقلب فيه الحيتان ودواب الماء وفيه منافع اخرى
انت بها عارف وعن عظم موقعها غافل فانه سوى الامر الجليل المعروف من
غنائه في احياء جميع ما على الارض من الحيوان والنبات يمزج بالاشربة فتلين
وتطيب لشاربها وبه تنظف الابدان والامتعة من الدرن الذي يغشاها
وبه يبل التراب فيصلح للاعتمال وبه يكف عادية النار اذا اضطرمت
واشرف الناس على المكروه وبه يستحم المتعب الكال فيجد الراحة من اوصابه
الى اشباه هذا من المآرب التي تعرف عظم موقعها في وقت الحاجة
اليها فان شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار وقلت ما
الارب فيه فاعلم انه مكتنف مضطرب ما لا يحصى من اصناف السمك
ودواب البحر ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر واصناف شتى تستخرج من البحر



وفي سواحلها منابت العود البلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير ثم هو لحد
مركب الناس ويحمل هذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة كمثل ما
يجلب من الصين الى العراق ومن العراق الى العراق فان هذه التجارات
لو لم يكن لها محمل الا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وايدي اهلها
لان اجر حملها كان يجاوز اثمانها فلا يتعرض احد لحملها وكان يجتمع في ذلك
امران احدهما فقد اشياء كثيرة تعظم الحاجة اليها والآخر انقطاع معاش
من يحملها ويتعيش بفضلها وهكذا الهواء لولا كثرته وسعته لاختنق هذا
الانام من الدخان والبخار التي يتحير فيه ويعجز عما سوى يحول الى السحاب و
الضباب اولا فاولا وقد تقدم من صفته ما فيه كفاية والنار ايضا كذلك
فانها لو لم تكن مبثوثة كالنسيم والماء كانت تحرق العالم وما فيه ولو لم يكن
بد من ظهورها في الاحايين لغنائها في كثير من المصالح جعلت كالمخزونة
في الاخشاب تلتمس عند الحاجة اليها وتمسك بالمادة والحطب ما احتيج الى
بقائها لئلا تخبو فلا هي تمسك بالمادة والحطب فتعظم المؤنة في ذلك
ولا هي تظهر مبثوثة فتحرق كلما هي فيه بل هي على تهيئة وتقدير اجتمع
فيها الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها ثم فيها خلة اخرى
وهي انها مما خص به الانسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة فانه لو
فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه فاما البهائم فلا تستعمل
النار ولا تستمتع بها ولما قدر الله عز وجل ان يكون هذا هكذا خلق للانسان
كفا واصابع مهيأة لقدح النار واستعمالها ولم يعط البهائم مثل ذلك
لكنها اعينت بالصبر على الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها في فقد النار
ما ينال الانسان وانبئك من منافع النار على خلقة صغيرة عظيم موقعها
وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاؤوا
من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس تصرف اعمارهم بمنزلة من في
القبور فمن كان يستطيع ان يكتب او يحفظ او ينسج في ظلمة الليل وكيف
كانت حال من عرض له وجع في وقت من اوقات الليل فاحتاج ان يعالج
ضمادا او سفوفا او شيئا يستشفي به فاما منافعها في نضج الاطعمة و
دفاء الابدان وتجفيف اشياء واشباه ذلك فاكثر من ان تحصى واظهر من
ان تخفى فكر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه
صلاحه ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده الا ترى ان
الامطار اذا توالت عفنت البقول والخضر واسترخت ابدان الحيوان
وحصر الهواء فاحدث ضروبا من الامراض وفسدت الطرق والمسالك
وان الصحو اذا دام جفت الارض واحترق النبات وغيض ماء العيون

والاودية

والاودية فاضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فاحدث ضروبا اخرى من الامراض
فاذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر
فصلحت الاشياء واستقامت فان قال قائل ولم لا يكون في شيء من ذلك
مضرة البتة قيل له ليمض ذلك الانسان ويولمه بعض الالم فيرعوي عن
المعاصي فكما ان الانسان اذا سقم بدنه احتاج الى الادوية المرة البشعة لتقوم
طباعه ويصلح ما فسد منه كذلك اذا طغى واشر احتاج الى ما يعضه ويولمه ليرعوي
ويقصر عن مساويه ويثبته على ما فيه حظه ورشده ولو ان ملكا من الملوك
قسم في اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة الم يكن سيعظم عندهم ويذهب
له به الصوت فاين هذا من مطرة رواء يعمر بها البلاد ويزيد في الغلات اكثر من
قناطير الذهب والفضة في اقاليم الارض كلها الا ترى المطرة الواحدة
ما اكبر قدرها واعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون وربما عاقت
احدهم عن حاجة لا قدر لها فيذمها ويسخط ايثارا للخسيس قدره على العظيم نفعه
جهلا بمحمود العاقبة وقلة معرفة بعظيم الغنا والمنفعة فيها تامل نزولها على الارض
والتدبير في ذلك فانه جعل يتحدر عليها من علو ليتفشى ما غلظ وارتفع منها
فيرويه ولو كان انما ياتيها من بعض نواحيها لما علا على المواضع المشرفة منها
ويقل ما يزرع في الارض الا ترى ان الذي يزرع سيحا اقل من ذلك فالامطار
هي التي تطبق الارض وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال
وذراها فتغل الغلة الكثيرة وبها تسقط عن الناس في كثير من البلدان
مؤنة لسياق الماء من موضع الى موضع وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم
حتى يستاثر بالماء ذوو العز والقوة ويحرمه الضعفاء ثم انه حين قدر ان يتحدر
على الارض انحدارا جعل ذلك قطرا شبيها بالرش ليغوص في قعر الارض
فيرويها ولو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الارض ولا يغوص فيها
ثم كان يحطم الزرع القائمة اذا اندفق عليها فصار ينزل نزولا رقيقا
فينبت الحب المزروع ويحيي الارض والزرع القائم وفي نزوله ايضا
مصالح اخرى فانه يلين الابدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث
من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى باليرقان الى
اشباه هذا من المنافع فان قال قائل او ليس قد يكون منه في بعض السنين
الضرر العظيم الكثير لشدة ما يقع منه او برد يكون فيه تحطم الغلات وبخورة
يحدثها في الهواء فيولد كثيرا من الامراض في الابدان والآفات في الغلات قيل له قد

يكون في ذلك الفرط لما فيه من صلاح الانسان وكفه عن ركوب المعاصي والتمادي فيها
فيكون المفتقر فيما يصلح له من دينه ادعى مما عسى ان يكون في حال الغنى انظر يا مفضل
الى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي يحسبها الغافلون فضلا
لا حاجة اليها والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك ان تسقط عليها الثلوج فتبقى في
قلالها لمن يحتاج اليه ويذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي
تجتمع منها الانهار العظام وتنبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا
ينبت مثلها في السهل وتكون فيها كهوف ومقايل للوحوش من السباع العادية
ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الاعداء وتنحت منها الحجارة
للبناء والارحاء وتوجد فيها معادن لضروب من الجواهر وفيها خلال اخرى
لا يعرفها الا المقدر لها في سابق علمه فكر يا مفضل في هذه المعادن وما يخرج
منها من الجواهر المختلفة مثل الجص والكلس والجبسين والزرانيخ والمرتك
والقونيا والزيبق والنحاس والرصاص والفضة والذهب والزبرجد والياقوت
والزمرد وضروب الحجارة وكذلك ما يخرج منها من القار والموميا والكبريت
والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم فهل يخفى على ذوي عقل ان
هذه كلها ذخائر ذخرت للانسان في هذه الارض ليستخرجها فيستعملها
عند الحاجة اليها ثم قصرت حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم و
اجتهادهم في ذلك فانهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة
سيظهر ويستفيض في العالم حتى تكثر الفضة والذهب ويسقطا عند
الناس فلا يكون لهما قيمة ويبطل الانتفاع بهما في الشرى والبيع والمعاملات
ولا كان يجبي السلطان الاموال ولا يدخرهما احد للاعقاب وقد اعطي الناس
مع هذا صنعة الشبه من النحاس والزجاج من الرمل والفضة من الرصاص
والذهب من الفضة واشباه ذلك مما لا مضرة فيه فانظر كيف اعطوا ارادتهم
فيما لا ضرر فيه ومنعوا ذلك فيما كان ضارا لهم لو نالوه ومن اوغل في المعادن
انتهى الى واد عظيم يجري منصلتا بماء غزير لا يدرك غوره ولا حيلة في عبوره
ومن ورائه امثال الجبال من الفضة تفكر الان في هذا من تدبير الخالق الحكيم
فانه اراد جل ثناؤه ان يري العباد قدرته وسعة خزائنه ليعلموا انه لو شاء
ان يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم في ذلك لانه لو كان فيكون
فيها كما ذكرنا سقوط هذا الجوهر عند الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بانه
قد يظهر الشيء الظريف مما يحدثه الناس من الاواني والامتعة فما دام عزيزا قليلا
فهو نفيس جليل آخذ الثمن فاذا فشا وكثر في ايدي الناس سقط عندهم وخست قيمته

ونفاسة الاشياء من عزتها فكر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب
فالثمار للغذاء والاتبان للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من انواع النجارة
وغيرها واللحاء والورق والاصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع
ارايت لو كنا نجد الثمار التي نغتذي بها مجموعة على وجه الارض ولم تكن تنبت على
هذه الاغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا وان كان
الغذاء موجودا فان المنافع بالخشب والحطب والاتبان وسائر ما عددناه كثيرة
عظيمة قدرها جليل موقعها هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره و
نضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه فكر يا مفضل في هذا
الريع الذي جعل في الزرع فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة واكثر واقل
وكان يجوز ان تكون الحبة تاتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع الا ليكون في الغلة متسع
لما يرد في الارض من البذر وما يتقوت الزراع الى ادراك زرعها المستقبل الا ترى ان
الملك لو اراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك ان يعطي اهله ما يبذرونه
في ارضهم وما يقوتهم الى ادراك زرعهم فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير
الحكيم فصار الزرع يريع هذا الريع ليفي بما يحتاج اليه للقوت والزراعة وكذلك
الشجر والنبت والنخل يريع الريع الكثير فانك ترى الاصل الواحد حوله من فراخه امر عظيم
فلم كان كذلك الا ليكون فيه ما يقطعه الناس ويستعملونه في مآربهم وما يرد فيغرس في
الارض ولو كان الاصل منه يبقى منفردا لا يفرخ ولا يريع لما امكن ان يقطع منه شيء لعمل
ولا لغرس ثم كان ان اصابته آفة انقطع اصله فلم يكن منه خلف تامل نبات هذه
الحبوب من العدس والماش والباقلى وما اشبه ذلك فانها تخرج في اوعية مثل
الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات الى ان تشتد وتستحكم كما قد تكون المشيمة
على الجنين لهذا المعنى بعينه فاما البر وما اشبهه فانه يخرج مدرجا في
قشور صلاب على رؤوسها امثال الاسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفر
على الزراع فان قال قائل او ليس قد ينال الطير من البر والحبوب
قيل له بلى على هذا قدر الامر فيها لان الطير خلق من خلق الله وقد جعل الله
تبارك وتعالى له فيما تخرج الارض حظا لكن حصنت الحبوب بهذه الحجب
لئلا يتمكن الطير منها كل التمكن فيعبث فيها ويفسد الفساد الفاحش
فان الطير لو صادف الحب بارزا ليس عليه شيء يحول دونه لاكب عليه حتى
ينسفه اصلا فكان يعرض من ذلك ان يبشم الطير فيموت ويخرج الزراع
من زرعه صفرا فجعلت عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه
شيئا يسيرا يتقوت به ويبقى اكثره للانسان فانه اولى به اذ كان
هو الذي كدح فيه وشقي به وكان الذي يحتاج اليه الناس اكثر مما يحتاج اليه الطير
تامل الحكمة في خلق الشجر واصناف النبات فانها لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة

الحيوان فلم يكن لها افواه كافواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت
اصولها مركوزة في الارض لتنزع منها الغذاء فتؤديه الى الاغصان وما عليها
من الورق والثمر فصارت الارض كالام المربية لها وصارت اصولها التي هي
كالافواه ملتقمة للارض لتنزع منها الغذاء كما ترضع اصناف الحيوان امهاتها
الم تر الى عمد الفساطيط والخيم كيف تمد بالاطناب من كل جانب لتثبت منتصبة
فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الارض ممتدة
الى كل جانب لتمسكه وتقيمه ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال
والدوح العظام في الريح العاصف فانظر الى حكمة الخلقة كيف سبقت حكمة
الصناعة فصارت الحيلة التي يستعملها الصناع في ثبات الفساطيط
والخيم متقدمة في خلق الشجر لان خلق الشجر قبل صنعة الفساطيط والخيم الا ترى
الى عمدها وعيدانها من الشجر فالصناعة ماخوذة من الخلقة تامل يا مفضل
خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها اجمع فمنها
غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة
نسجا دقيقا معجما لو كان مما يصنع بالايدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق
شجرة واحدة في عام كامل ولاحتيج الى الآلات وحركة وعلاج وكلام
يأتي منه في ايام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الارض كلها
بلا حركة ولا كلام الا بالارادة النافذة في كل شيء والامر المطاع واعرف مع
ذلك العلة في تلك العروق الدقاق فانها جعلت تتخلل الورقة باسرها لتسقيها
وتوصل الماء اليها بمنزلة العروق المبثوثة في البدن لتوصل الغذاء الى كل جزء
منه وفي الغلاظ منها معنى آخر فانها تمسك الورقة بصلابتها ومتانتها
لئلا تنتهك وتتمزق فترى الورقة شبيهة بورقة معمولة بالصنعة من
خرق قد جعلت فيها عيدان ممدودة في طولها وعرضها لتتماسك فلا
تضطرب فالصناعة تحكي الخلقة وان كانت لا تدركها على الحقيقة فكر في
هذا العجم والنوى والعلة فيه فانه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقام الغرس
ان عاق دون الغرس عائق كما يحرز الشيء النفيس الذي تعظم الحاجة اليه في
مواضع اخر فان حدث على الذي في بعض المواضع منه حادث وجد في موضع
آخر ثم هو بعد يمسك بصلابته رخاوة الثمار ورقتها ولولا ذلك لتشدخت
وتفسخت واسرع اليها الفساد وبعضه يؤكل ويستخرج دهنه فيستعمل
منه ضروب من المصالح وقد تبين لك موضع الارب في العجم والنوى
فكر الآن في هذا الذي تجده فوق النواة من الرطبة وفوق العجم من العنبة
فما العلة فيه ولماذا يخرج في هذه الهيئة وقد كان يمكن ان يكون مكان ذلك

الدوح شجر عظام [illegible]

العجم بالتحريك النوى من كل شيء

ما ليس فيه

ما ليس فيه ماكل كمثل ما يكون من السدر والدلب وما اشبه ذلك فلم صار
يخرج فوقه هذه المطاعم اللذيذة الا ليستمتع بها الانسان فكر في ضروب
من التدبير في الشجر فانك تراه يموت في كل سنة موتة فتحتبس الحرارة الغريزية
في عوده ويتولد فيه مواد الثمار ثم يحيى وينتشر فياتيك بهذه الفواكه نوعا
بعد نوع كما تقدم اليك انواع الاطبخة التي تعالج بالايدي واحدا بعد واحد
فترى الاغصان في الشجر تتلقاك بالايدي بثمارها حتى كانها تناولكها
عن يد وترى الرياحين تتلقاك في افنانها كانها تجيئك بانفسها فلمن هذا
التقدير الا لمقدر حكيم وما العلة فيه الا تفكيه الانسان بهذه الثمار والانوار
والعجب من اناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها واعتبر بخلق الرمانة
وما ترى فيها من اثر العمد والتدبير فانك ترى فيها كامثال التلال من شحم مركوم
في نواحيها وحبا مرصوفا صفا كنحو ما ينضد بالايدي وترى الحب مقسوما
اقساما وكل قسم منها ملفوف بلفائف من حجب منسوجة اعجب النسج والطفه
وقشره يضم ذلك كله فمن التدبير في هذه الصنعة انه لم يكن يجوز ان يكون حشو
الرمانة من الحب وحده وذلك ان الحب لا يمد بعضه بعضا فجعل ذلك الشحم
خلال الحب ليمده بالغذاء الا ترى ان اصول الحب مركوزة في ذلك الشحم ثم
لف بتلك اللفائف لتضمه وتمسكه فلا يضطرب وغشي فوق ذلك بالقشرة
المستحصفة لتصونه وتحصنه من الآفات فهذا قليل من كثير وصف الرمانة
وفيه اكثر من هذا لمن اراد الاطناب والتذرع في الكلام ولكن فيما ذكرت كفاية في
الدلالة والاعتبار فكر يا مفضل في حمل اليقطين الضعيف مثل هذه الثمار الثقيلة من
الدباء والقثاء والبطيخ وما في ذلك من التدبير والحكمة فانه حين قدر ان يحمل مثل
هذه الثمار جعل نباته منبسطا على الارض ولو كان ينتصب قائما كما ينتصب
الزرع والشجر لما استطاع ان يحمل مثل هذه الثمار الثقيلة ولتقصف قبل
ادراكها وانتهائها الى غاياتها فانظر كيف صار يمتد على وجه الارض ليلقي عليها
ثمارها وتحملها عنه فترى الاصل من القرع والبطيخ مفترشا للارض
وثماره مبثوثة عليها وحواليه كانه هرة ممتدة وقد اكتنفتها اجراؤها لترضع منها
وانظر كيف صارت الاصناف توافي في الوقت المشاكل لها من حمارة الصيف
ووقدة الحر فتلقاها النفوس بانشراح وتشوق اليها ولو كانت توافي
في الشتاء لوافقت من الناس كراهة لها واقشعرارا منها مع ما يكون فيها من المضرة
للابدان الا ترى انه ربما ادرك شيء من الخيار في الشتاء فيمتنع الناس من اكله
الا الشره الذي لا يمتنع من اكل ما يضره ويستوخم مغبته فكر يا مفضل في النخل فانه لما

الدباء القرع ويطلق على
اليقطين ما لا ساق له من
النبات [illegible]

التقصف التكسر

حمارة الصيف شدة حره

الاستيخام [illegible]

مما وفيه اناث تحتاج الى التلقيح جعلت فيه ذكورة للقاح من غير غراس فصار
الذكر من النخل بمنزلة الذكر من الحيوان الذي يلقح الاناث لتحمل وهو لا يحمل تأمل
خلقة الجذع كيف هو فانك تراه كالمنسوج نسجا من غير خيوط ممدودة كالسدى
واخرى معه معترضة كاللحمة كنحو ما ينسج بالايدي وذلك ليشتد ويصلب ولا
يتقصف من حمل القنوان الثقيلة وهز الرياح العواصف اذا صار نخلة
وليتهيأ للسقوف والجسور وغير ذلك مما يتخذ منه اذا صار جذعا وكذلك
ترى الخشب مثل النسج فانك ترى بعضه مداخلا بعضا طولا وعرضا كتداخل
اجزاء اللحم وفيه مع ذلك متانة ليصلح لما يتخذ منه من الآلات فانه لو كان
مستحصفا كالحجارة لم يمكن ان يستعمل في السقوف وغير ذلك مما يستعمل
فيه الخشبة كالابواب والاسرة والتوابيت وما اشبه ذلك ومن جسيم
المصالح في الخشب انه يطفو على الماء فكل الناس يعرف هذا منه
وليس كلهم يعرف جلالة الامر فلولا هذه الخلة كيف كانت هذه السفن
والاظراف تحمل امثال الجبال من الحمولة وانى كان ينال الناس هذا الرفق
وخفة المؤونة وحمل التجارات من بلد الى بلد وكانت تعظم المؤونة عليهم في
حملها حتى يلقى كثير مما يحتاج اليه في بعض البلدان مفقودا اصلا او عسر
وجوده فكر في هذه العقاقير وما خص بها كل واحد منها من العمل في بعض
الادواء فهذا يغوص في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة مثل الشيطرج
وهذا ينزف المرة السوداء مثل الافتيمون وهذا ينفي الرياح مثل
وهذا يحلل الاورام واشباه هذا من افعالها فمن جعل هذه القوى
فيها الا من خلقها للمنفعة ومن فطن الناس لها الا من جعل هذا فيها و
متى كان يوقف على هذا منها بالعرض والاتفاق كما قال قائلون وهب
الانسان فطن لهذه الاشياء بذهنه ولطيف رويته وتجاربه فالبهائم
كيف فطنت لها حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحته ان اصابته
ببعض العقاقير فيبرأ وبعض الطير يحتقن من الحصر يصيبه بماء البحر فيسلم
واشباه هذا كثير ولعلك تشكك في هذا النبات النابت في الصحارى
والبراري حيث لا انس ولا انيس فتظن انه فضل لا حاجة اليه وليس كذلك
بل هو طعم لهذه الوحوش وحبه علف للطير وعوده وافنانه حطب فيستعمله
الناس وفيه بعد اشياء تعالج بها الابدان واخرى تدبغ بها الجلود
واخرى تصبغ بها الامتعة واشباه هذا من المصالح الست تعلم ان من
اخس النبات واحقره هذا البردي وما اشبهها ففيها مع هذا من ضروب

الحصر اعتقال البطن ق

المنافع فقد يتخذ من البردي القراطيس التي يحتاج اليها الملوك والسوقة في
تستعملها كل صنف من الناس ويعمل منه الغلف التي توقى بها الآنية
ويجعل حشوا بين الظروف في الاسفاط لكيلا تعيب وتنكسر واشباه هذا
من المنافع فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق وكبيره وبما له قيمة
وما لا قيمة له واخس من هذا واحقر الزبل والعذرة التي اجتمعت فيها
الخساسة والنجاسة معا وموقعها من الزروع والبقول والخضر اجمع الموقع
الذي لا يعدله شيء حتى ان كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو الا بالزبل والسماد
الذي يستقذره الناس ويكرهون الدنو منه واعلم انه ليس منزلة الشيء
على حسب قيمته بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين وربما كان الخسيس
في سوق المكتسب نفيسا في سوق العلم فلا تستصغر العبرة في الشيء
لصغر قيمته فلو فطنوا طالبو الكيميا لما في العذرة لاشتروها بانفس
الاثمان وغالوا بها قال المفضل وحان وقت الزوال فقام مولاي
الى الصلوة وقال بكر الي غدا ان شاء الله فانصرفت وقد تضاعف
سروري بما عرفنيه مبتهجا بما آتانيه حامدا لله على ما منحنيه فبت
ليلتي مسرورا

المجلس الرابع

قال المفضل فلما كان اليوم الرابع
بكرت الى مولاي فاستؤذن لي فامرني بالجلوس فجلست فقال
منا التحميد والتسبيح والتعظيم والتقديس للاسم الاقدس والنور
الاعظم العلي العلام ذي الجلال والاكرام ومنشئ الانام ومفني العوالم
والدهور وصاحب السر المستور والغيب المحظور والاسم المخزون و
العلم المكنون وصلواته وبركاته على مبلغ وحيه ومؤدي رسالته الذي
ابتعثه بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ليهلك من هلك
عن بينة ويحيى من حي عن بينة فعليه وعلى آله من بارئه الصلوات الطيبات
والتحيات الزاكيات الناميات وعليه وعليهم السلام والرحمة والبركات
في الماضين والغابرين ابد الآبدين ودهر الداهرين وهم اهله ومستحقه
قد شرحت لك يا مفضل من الادلة على الخلق والشواهد على صواب

التدبير والعمد في الانسان والحيوان والنبات والشجر وغير ذلك ما فيه
عبرة لمن اعتبر وانا اشرح لك الآن الآفات الحادثة في بعض الازمان
التي اتخذها اناس من الجهال ذريعة الى جحود الخلق والخالق والعمد والتدبير
وما انكرت المعطلة والمنانية من المكاره والمصائب وما انكروه من
الموت والفناء وما قاله اصحاب الطبائع ومن زعم ان كون الاشياء
بالعرض والاتفاق ليتسع ذلك القول بالرد عليهم قاتلهم الله انى
يؤفكون اتخذ اناس من الجهال هذه الآفات الحادثة في بعض الازمان
كالوباء واليرقان والبرد والجراد ذريعة الى جحود الخلق والتدبير و
الخالق فيقال في جواب ذلك انه ان لم يكن خالق ومدبر فلم لا يكون
ما هو اكثر من هذا وافظع فمن ذلك ان يسقط السماء على الارض
وتهوي الارض فتذهب سفلا وتتخلف الشمس عن الطلوع اصلا
وتجف الانهار والعيون حتى لا يوجد ماء للشفة وتركد الريح حتى تخم طعام وخيم غير موافق
الاشياء وتفسد ويفيض ماء البحر على الارض فيغرقها ثم هذه
الآفات التي ذكرناها من الوباء والجراد وما اشبه ذلك ما بالها لا تدوم و
تمتد حتى تجتاح كل ما في العالم بل تحدث في الاحايين ثم لا تلبث ان ترفع
افلا ترى ان العالم يصان ويحفظ من تلك الاحداث الجليلة التي لو حدث عليه
شيء منها كان فيه بواره ويلدغ احيانا بهذه الآفات اليسيرة لتأديب
الناس وتقويمهم ثم لا تدوم هذه الآفات بل تكشف عنهم عند القنوط منهم
فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة وقد انكرت المعطلة ما
انكرت المنانية من المكاره والمصائب التي تصيب الناس فكلاهما يقول
ان كان للعالم خالق رؤوف رحيم فلم تحدث فيه هذه الامور المكروهة
والقائل بهذا القول يذهب الى انه ينبغي ان يكون عيش الانسان
في هذه الدنيا صافيا من كل كدر ولو كان هكذا كان الانسان سيخرج من الاشر

والعتو

من الحواس وعلى حسب هذا ايضا نقول ان العقل يعرف الخالق من جهة
ما يوجب عليه الاقرار ولا يعرفه بما يوجب له الاحاطة بصفته فان
قالوا فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف ولا يحيط به
قيل لهم انما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم ان يبلغوه وهو ان يوقنوا به
ويقفوا عند امره ونهيه ولم يكلفوا الاحاطة بصفته كما ان الملك يكلف
لا يكلف رعيته ان يعلموا اطويل ام قصير وابيض هو ام اسمر وانما
يكلفهم الاذعان لسلطانه والانتهاء الى امره الا ترى ان رجلا
لو اتى باب الملك فقال اعرض علي نفسك حتى اتقصى معرفتك والا
لم اسمع لك كان قد احل نفسه العقوبة فكذا القائل انه لا يقر بالخالق
سبحانه حتى يحيط بكنهه متعرض لسخطه فان قالوا اوليس قد نصفه
فنقول هو العزيز الحكيم الجواد الكريم قيل لهم كل هذه صفات اقرار
وليست صفات احاطة فانا نعلم انه حكيم ولا نعلم بكنه ذلك منه
وكذلك قدير وجواد وسائر صفاته كما قد نرى السماء ولا ندري ما
جوهرها ونرى البحر ولا ندري اين منتهاه بل فوق هذا المثال بما
لا نهاية له لان الامثال كلها تقصر عنه ولكنها تقود العقل الى معرفته
فان قالوا ولم يختلف فيه قيل لهم لقصر الاوهام عن مدى عظمته
وتعديها اقدارها في معرفته وانها تروم الاحاطة به وهي تعجز عن ذلك
وما دونه فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقف
على حقيقة امرها ولذلك كثرت الاقاويل فيها واختلفت الفلاسفة
المذكورون في وصفها فقال بعضهم هو فلك اجوف مملوء نارا له فم
يجيش بهذا الوهج والشعاع وقال آخرون هو سحابة وقال آخرون يجيش
هو جسم زجاجي يقبل نارية في العالم ويرسل عليه شعاعها وقال آخرون
هو صفو لطيف ينعقد من ماء البحر وقال آخرون هو اجزاء كثيرة مجتمعة
من النار وقال آخرون هو جوهر خامس سوى الجواهر الاربعة ثم اختلفوا

في شكلها فقال بعضهم هي بمنزلة صفحة عريضة وقال آخرون بل هي اعظم
كالكرة المدحرجة وكذلك اختلفوا في مقدارها فزعم بعضهم انها مثل
الارض سواء وقال آخرون بل هي اقل من ذلك وقال آخرون بل هي اعظم
من الجزيرة العظيمة وقال اصحاب الهندسة بل هي اضعاف الارض
مائة وسبعون مرة ففي اختلاف هذه الاقاويل منهم في الشمس دليل
على انهم لم يقفوا على الحقيقة من امرها فاذا كانت هذه الشمس التي
يقع عليها البصر ويدركها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها
فكيف ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم فان قالوا ولم استتر
قيل لهم لم يستتر بحيلة يخلص اليها كمن يحتجب عن الناس بالابواب
والستور وانما معنى قولنا استتر انه لطف عن مدى ما تبلغه
الاوهام كما لطفت النفس وهي خلق من خلقه وارتفعت عن ادراكها
بالنظر فان قالوا ولم لطف وتعالى عن ذلك علوا كبيرا كان ذلك خطأ
من القول لانه لا يليق بالذي هو خالق كل شيء الا ان يكون مباينا
لكل شيء متعاليا عن كل شيء سبحانه وتعالى فان قالوا كيف يعقل ان خلق
يكون مباينا لكل شيء متعاليا عن كل شيء قيل لهم الحق الذي يطلب معرفته
من الاشياء هو اربعة اوجه فاولها ان ينظر اموجود هو ام ليس بموجود
والثاني ان يعرف ما هو في ذاته وجوهره والثالث ان يعرف كيف هو
وما صفته والرابع ان يعلم لماذا هو ولاية علة فليس من هذه
شيء يمكن المخلوق ان يعرفه من الخالق حق معرفته غير انه موجود فقط
فاذا قلنا وكيف وما هو فممتنع علم كنهه وكمال المعرفة به واما لماذا هو
فساقط في صفة الخالق لانه جل ثناؤه علة كل شيء وليس شيء بعلة له
ثم ليس علم الانسان بانه موجود يوجب له ان يعلم ما هو وكيف هو
كما ان علمه بوجود النفس لا يوجب ان يعلم ما هي وكيف هي وكذلك الامور
الروحانية اللطيفة فان قالوا فانتم الآن تصفون من قصور العلم عنه

وصفا

في البر فان هذين الامرين جميعا يقلبان على الناس في الخفض والدعة هذه
الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم فلو اخلوا
منها لغلوا في الطغيان والمعصية كما غلا الناس في اول الزمان حتى وجب عليهم
البوار في الطوفان وتطهير الارض منهم ومما ينتقده الجاحدون للعمد
والتقدير الموت والفناء فانهم يذهبون الى انه ينبغي ان يكون للانسان الناس
مخلدين في هذه الدنيا مبرئين من الآفات فينبغي ان يساق هذا الامر الى
غايته فينظر ما محصوله افرايت كل من دخل العالم ويدخله يبقون ولا يموت
احد منهم الم تكن الارض تضيق بهم حتى تعوزهم المساكن والمزارع والمعاش
فانهم والموت يفنيهم اولا اولا يتنافسون في المساكن والمزارع حتى تنشب
بينهم في ذلك الحروب وتسفك فيهم الدماء فكيف كانت تكون حالهم لو
كانوا يولدون ولا يموتون وكان يغلب عليهم الحرص والشره وقساوة القلوب
فلو وثقوا بانهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله ولا افرج لاحد
عن شيء يسأله ولا سلا عن شيء مما يحدث عليه ثم كانوا يملون الحياة بناله
وكل شيء من امور الدنيا كما قد يمل الحياة من طال عمره حتى يتمنى الموت والراحة
من الدنيا فان قالوا انه كان ينبغي ان يرفع عنهم المكاره والاوصاب حتى لا
يتمنوا الموت ولا يشتاقوا اليه فقد وصفنا ما كان يخرجهم اليه من العتو
والاشر الحامل لهم على ما فيه فساد الدين والدنيا وان قالوا انه كان ينبغي
ان لا يتوالدوا كيلا تضيق عليهم المساكن والمعاش قيل لهم اذا كان يحرم
اكثر هذا الخلق دخول العالم والاستمتاع بنعم الله ومواهبه في الدارين
جميعا اذا لم يدخل العالم الا قرن واحد لا يتوالدون ولا ينسلون
فان قالوا كان ينبغي ان يخلق في القرن الواحد من الناس مثل ما خلق ويخلق الى
انقضاء العالم يقال لهم رجع الامر الى ما ذكرنا من ضيق المساكن والمعاش

منهم ثم لو كانوا لا يألمون ولا يأسفون لذهب موضع الانس بالقرابات
وذوي الارحام والانتصار بهم عند الشدائد وموضع تربية الاولاد
والسرور بهم ففي هذا دليل على ان كل ما تذهب اليه الاوهام سوى
ما جرى به التدبير خطأ وسفاه من الراي والقول ولعل طاعنا يطعن
على التدبير من جهة اخرى فيقول كيف يكون ههنا تدبير ونحن نرى
الناس في هذه الدنيا من عزيز فالقوي يظلم ويغصب والضعيف يظلم
ويسام الخسف والصالح فقير مبتلى والفاسق معافى موسع عليه ومن
ركب فاحشة او انتهك محرما لم يعاجل بالعقوبة فلو كان في العالم تدبير
لجرت الامور على القياس القائم فكان الصالح هو المرزوق والطالح هو
المحروم وكان القوي يمنع من ظلم الضعيف والمنتهك للمحارم يعاجل
بالعقوبة فيقال في جواب ذلك ان هذا لو كان هكذا لذهب موضع
الاحسان الذي فضل به الانسان على غيره من الخلق وحمل النفس على البر
والعمل الصالح احتسابا للثواب وثقة بما وعد الله منه ولصار الناس
بمنزلة الدواب التي تساس بالعصا والعلف ويلمع لها بكل واحد منهما
ساعة فساعة فيستقيم على ذلك ولم يكن احد على يقين بثواب وعقاب
حتى كان هذا يخرجهم عن حد الانسانية الى حد البهائم ثم لا يعرف ما غاب
ولا يعمل الا على الحاضر وكان يحدث من هذا ايضا ان يكون الصالح انما
يعمل الصالحات للرزق والسعة في هذه الدنيا ويكون الممتنع من الظلم
والفواحش انما يعف عن ذلك لترقب عقوبة تنزل به من ساعته حتى
يكون افعال الناس كلها تجري على الحاضر لا يشوبها شيء من اليقين بما
عند الله ولا يستحقون ثواب الآخرة والنعيم الدائم مع ان هذه الامور
التي ذكرها الطاعن من الغنى والفقر والعافية والبلاء ليست بجارية

على خلاف

على خلاف قياسه بل قد تجري على ذلك احيانا والامر المفهوم فقد نرى كثيرا
من الصالحين يرزقون المال لضروب من التدبير وكيلا يسبق الى قلوب الناس
ان الكفار هم المرزوقون والابرار هم المحرومون فيؤثرون الفسق على الصلاح
وترى كثيرا من الفساق يعاجلون بالعقوبة اذا تفاقم طغيانهم وعظم ضررهم
على الناس وعلى انفسهم كما عوجل فرعون بالغرق وبخت نصر بالتيه و
بلبيس بالقتل وان امهل بعض الاشرار بالعقوبة واخر بعض الاخيار
بالثواب الى دار الآخرة لاسباب تخفى على العباد لم يكن هذا مما يبطل
التدبير فان مثل هذا قد يكون من ملوك الارض ولا يبطل تدبيرهم بل
يكون تاخيرهم ما اخروه او تعجيلهم ما عجلوه داخلا في صواب الراي و
التدبير واذا كانت الشواهد تشهد وقياسهم يوجب ان للاشياء
خالقا حكيما قادرا فما يمنعه ان يدبر خلقه فانه لا يصح في قياسهم ان
يكون الصانع يهمل صنعته الا باحدى ثلاث خلال اما عجز واما جهل
واما شرارة وكل هذه محال في صنعته عز وجل وتعالى ذكره وذلك
ان العاجز لا يستطيع ان ياتي بهذه الخلائق الجليلة العجيبة والجاهل
لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة والشرير لا يتطاول لخلقها
وانشائها واذا كان هذا هكذا وجب ان يكون الخالق لهذه الخلائق
يدبرها لا محالة وان كان لا يدرك كنه ذلك التدبير ومخارجه فان
كثيرا من تدبير الملوك لا تفهمه العامة ولا تعرف اسبابه لانها لا تعرف
دخلة امر الملوك واسرارهم فاذا عرف سببه وجد قائما
على الصواب والشاهد والمحنة ولو شككت في بعض الادوية و
الاطعمة فتبين لك من جهتين او ثلاث انه حار او بارد الم تكن
ستقضي عليه بذلك وتنفي الشك فيه عن نفسك فما بال هؤلاء
الجهلة لا يقضون على العالم بالخالق والتدبير مع هذه الشواهد
الكثيرة واكثر منها لا يحصى كثرة لو كان نصف العالم وما فيه مشكلا

ونقل الرجل [illegible] بنيته وتدبير
[illegible] امره وخلده و
[illegible]
لطانة [illegible]

٣٠

والعتو الى ما لا يصلح في دين ولا دنيا كالذي ترى كثيرا من المترفين ومن
نشا في الجدة والامن يخرجون اليه حتى ان احدهم ينسى انه بشر او انه مربوب
او انه متضرر بما يمسه او ان مكروها ينزل به او انه يجب عليه ان يرحم ضعيفا
او يواسي فقيرا او يرثي لمبتلى او يتحنن على ضعيف او يتعطف على مكروب
فاذا عضته المكاره ووجد مضضها اتعظ وابصر كثيرا مما كان جهله وغفل
عنه ورجع الى كثير مما كان يجب عليه والمنكرون لهذه الامور المؤذية بمنزلة
الصبيان الذين يذمون الادوية المرة البشعة ويتسخطون من المنع من
الاطعمة الضارة ويتكرهون الادب والعمل ويحبون ان يتفرغوا اللهو
والبطالة وينالوا كل مطعم ومشرب لا يعرفون ما يؤديهم اليه البطالة من سوء
النشو والعادة وما تعقبهم الاطعمة اللذيذة الضارة من الادواء والاسقام
وما لهم في الادب من الصلاح وفي الادوية من المنفعة وان شاب ذلك بعض الكراهة
فان قالوا ولم لم يكن الانسان معصوما من المساوي حتى لا يحتاج ان يلذعه هذه المكاره
قيل اذا كان يكون غير محمود على حسنة ياتيها ولا مستحق للثواب عليها فان قالوا وما
كان يضره ان لا يكون محمودا على الحسنات مستحقا للثواب بعد ان يصير الى غاية
النعيم واللذة قيل لهم اعرضوا على امرء صحيح الجسم والعقل ان يجلس منعما و
يكفى كلما يحتاج اليه بلا سعي ولا استحقاق فانظروا هل تقبل نفسه ذلك بل ستجدونه
بالقليل مما يناله بالسعي والحركة اشد اغتباطا وسرورا منه بالكثير مما يناله
بغير استحقاق وكذلك نعيم الآخرة ايضا يكمل لاهله بان ينالوه بالسعي فيه
والاستحقاق له فالنعمة على الانسان في هذا الباب مضاعفة فان اعد له الثواب
الجزيل على سعيه في هذه الدنيا وجعل له السبيل الى ان ينال ذلك بسعي واستحقاق
فيكمل له السرور والاغتباط بما يناله منه فان قالوا اوليس قد يكون من الناس من
يركن الى ما نال من خير وان كان لا يستحقه فما الحجة في منع من رضي ان ينال نعيم
الآخرة على هذه الجملة قيل لهم ان هذا باب لو صح للناس لخرجوا الى غاية

رثيت له رققت له مرثاة
عض الزمان والكرب شدتهما
ق

للثواب صح

صواب لما كان من حزم الراي وسمة الادب ان يقضى على العالم بالاهمال
لانه كان في الصنعة الآخر وما يظهر فيه الصواب والاتقان ما يردع
الوهم عن التسرع الى هذه القضية فكيف وكل ما فيه اذا فتش
وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر بالبال شيء الا وجد ما عليه الخلقة
اصح واصوب منه واعلم يا مفضل ان اسم هذا العالم بلسان
اليونانية الجاري المعروف عندهم قوسموس وتفسيره الزينة
وكذلك سمته الفلاسفة ومن ادعى الحكمة افكانوا يسمونه بهذا
الاسم الا لما راوا فيه من التقدير والنظام فلم يرضوا ان يسموه تقديرا
ونظاما حتى سموه زينة ليخبروا انه مع ما هو عليه من الصواب والاتقان
على غاية الحسن والبهاء اعجب يا مفضل من قوم لا يقضون على صناعة
الطب بالخطا وهم يرون الطبيب يخطي ويقضون على العالم بالاهمال
ولا يرون شيئا منه مهملا بل اعجب من اخلاق من ادعى الحكمة
حتى جهلوا مواضعها في الخلق فارسلوا السنتهم بالذم للخالق
جل وعلا بل العجب من المخذول ماني حين ادعى علم الاسرار وعمي
عن دلائل الحكمة في الخلق حتى نسبه الى الخطا ونسب خالقه الى الجهل تبارك
الحكيم الكريم واعجب منهم جميعا المعطلة الذين راموا ان يدرك
بالحس ما لا يدرك بالعقل فلما اعوزهم ذلك لانه فوق مرتبة العقل
كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته فانك لو رايت حجرا يرتفع
في الهواء علمت ان راميا رمى به فليس هذا العلم من قبل البصر بل
من قبل العقل لان العقل هو الذي يميزه فيعلم ان الحجر لا يذهب علوا
من تلقاء نفسه افلا ترى كيف وقف البصر على حده ولم يتجاوزه
وكذلك يقف العقل على حده من معرفة الخالق فلا يعدوه ولكن
يعقله بعقل اقر ان فيه نفسا ولم يعاينها ولم يدركها بحاسة من

من صح

الحواس

الكلب والضراوة والتهالك على المحارم ممن كان يكف نفسه عن فاحشة او
يحتمل المشقة في باب من ابواب البر لو وثق بانه صائر الى النعيم لا محالة او من
كان يامن على نفسه واهله وماله من الناس لو لم يخاف الحساب والعقاب فكان ضرر
هذا الباب سينال الناس في هذه الدنيا قبل الآخرة فيكون في ذلك تعطيل
العدل والحكمة معا وموضع للطعن على التدبير بخلاف الصواب ووضع الامور
غير مواضعها. وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس فتعم البر و
الفاجر ويبتلى بها البر ويسلم الفاجر منها فقالوا كيف يجوز هذا في تدبير
الحكيم وما الحجة فيه فيقال لهم ان هذه الآفات وان كانت تنال الصالح والطالح لح ٣
جميعا فان الله جعل ذلك صلاحا للصنفين كليهما اما الصالحون فان
الذي يصيبهم من هذا يردهم نعم ربهم عندهم في سالف ايامهم فيحدوهم
ذلك على الشكر والصبر واما الطالحون فان مثل هذا اذا نالهم كسر شرتهم
وردعهم عن المعاصي والفواحش وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحا
في ذلك اما الابرار فانهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه
رغبة وبصيرة واما الفجار فانهم يعرفون رافة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير
استحقاق فيحضهم ذلك على الرافة بالناس والصفح عمن اساء اليهم ولعل قائلا
يقول ان هذه الآفات التي تصيب الناس في اموالهم فما قولك فيما يبتلون به في
ابدانهم فيكون فيه تلفهم كمثل الحرق والغرق والسيل والخسف فيقال له ان الله
جعل في هذا ايضا صلاحا للصنفين جميعا اما الابرار فلما لهم في مفارقة هذه
الدنيا من الراحة من تكاليفها والنجاة من مكارهها واما الفجار فلما لهم
في ذلك من تمحيص اوزارهم وحبسها عن الازدياد منها وجملة القول ان
الخالق تعالى ذكره بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الامور كلها الى الخيرة و
المنفعة فان قال ولم لا يحدث على الناس قيل له لكيلا يركنوا الى المعاصي
من طول السلامة فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي ويفتر الصالح عن الاجتهاد

وصفا كانه غير معلوم قيل هو كذلك من جهة اذا رام العقل معرفة كنهه و
الاحاطة به وهو من جهة اخرى اقرب من كل قريب اذا استدل عليه
بالدلائل الشافية فهو من جهة كالواضح لا يخفى على احد وهو من جهة كالغامض
لا يدركه احد وكذلك العقل ايضا ظاهر بشواهده ومستور بذاته فاما
اصحاب الطبائع فقالوا ان الطبيعة لا تفعل شيئا لغير معنى ولا تتجاوز عما فيه
تمام الشيء في طبيعته وزعموا ان الحكمة تشهد بذلك فقيل لهم من اعطى
الطبيعة هذه الحكمة والوقوف على حدود الاشياء بلا مجاوزة لها وهذا
قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب فان اوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة
على هذه الافعال فقد اقروا بما انكروا لان هذه هي صفات الخالق
وان انكروا ان يكون هذا للطبيعة فهذا وجه الخلق يهتف بان الفعل
للخالق الحكيم وقد كان من القدماء طائفة انكروا العمد والتدبير في
الاشياء وزعموا ان كونها بالعرض والاتفاق وكان مما احتجوا به هذه
الآفات التي تلد غير مجرى العرف والعادة كالانسان يولد ناقصا
او ناقصا او زائدا اصبعا او يكون المولود مشوها مبدل
الخلق فجعلوا هذا دليلا على ان كون الاشياء ليس بعمد وتقدير
ل بالعرض والاتفاق انما هو شيء ياتي في الفرط مرة لاعراض تعرض
للطبيعة فتزيلها عن سبيلها وليس بمنزلة الامور الطبيعية الجارية على
شكل واحد جريا دائما متتابعا وانت يا مفضل ترى اصناف
الحيوان تجري اكثر ذلك على مثال واحد كالانسان يولد وله يدان ومنهاج
ورجلان وخمس اصابع كما عليه الجمهور من الناس فاما ما يولد على
خلاف ذلك فانه لعلة تكون في الرحم او في المادة التي ينشا منها الجنين
كما يعرض في الصناعات حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته فيعوق
دون ذلك عائق في الاداة او في الآلة التي يعمل فيها الشيء وقد يحدث
مثل ذلك في اولاد الحيوان للاسباب التي وصفنا فياتي الولد زائدا

او ناقصا او مشوها و يسلم اكثرها فيأتي سويا لا علة فيه فكما ان الذي
يحدث في بعض اعمال الاعراض لعلة فيه لا توجب عليها جميعا الاهمال
وعدم الصانع كذلك ما يحدث على بعض الافعال الطبيعية لعائق يدخل
عليها لا يوجب ان يكون جميعها بالعرض والاتفاق فقول من قال في
الاشياء ان كونها بالعرض والاتفاق من قبل ان شيئا منها يأتي
على خلاف الطبيعة لعرض يعرض له خطأ وخطل فان قالوا ولم صار
مثل هذا يحدث في الاشياء قيل لهم ليعلم انه ليس كون الاشياء
باضطرار من الطبيعة ولا يمكن ان يكون سواه كما قال قائلون بل هو تقدير
وعمد من خالق حكيم اذ جعل الطبيعة تجري اكثر ذلك على مجرى ومنهاج
معروف ويزول احيانا عن ذلك لاعراض تعرض لها فيستدل بذلك
على انها مصرفة مدبرة فقيرة الى ابداء الخالق وقدرته في بلوغ
غايتها واتمام عملها تبارك الله احسن الخالقين يا مفضل خذ
ما آتيتك واحفظ ما منحتك وكن لربك من الشاكرين ولآلائه
من الحامدين ولأوليائه من المطيعين فقد شرحت لك من الادلة على الخلق
والشواهد على صواب التدبير والعمد قليلا من كثير وجزءا من كل فتدبره
وفكر فيه واعتبر به فقلت بمعونتك يا مولاي اقوى على ذلك وابلغه
ان شاء الله فوضع يده على صدري فقال احفظ بمشية الله ولا تنس
ان شاء الله فخررت مغشيا فلما افقت قال كيف ترى نفسك يا مفضل
فقلت قد استغنيت بمعونة مولاي وتأييده عن الكتاب الذي كتبته
وصار ذلك بين يدي كأنما اقرأه من كفي فلمولاي الحمد والشكر كما هو
مستحقه فقال يا مفضل فرغ قلبك واجمع اليك ذهنك وعقلك
وطمأنينتك فسألقي عليك من علم ملكوت السموات والارض وما
خلق الله بينهما وفيهما من عجائب خلقه واصناف الملائكة وصفوفهم
ومقاماتهم ومراتبهم الى سدرة المنتهى وسائر الخلق من الجن والانس

الى الارض

الى الارض السابعة السفلى وما تحت الثرى حتى يكون ما وعيته جزءا من اجزاء
انصرف اذا شئت مصاحبا مكلوءا فانت منا بالمكان الرفيع وموضعك
من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى ولا
تسألن عما وعدتك حتى احدث لك منه ذكرا
قال المفضل فانصرفت من مولاي بما
لم ينصرف احد بمثله والحمد لله
رب العالمين

اوناقصا او مشوها و يسلم اكثرها فيا تي سويا لا علة فيه فكما ان الذي
يحدث في بعض اعمال الاعراض لعلة فيه لا توجب عليها جميعا الاهمال
وعدم الصانع كذلك ما يحدث على بعض الافعال الطبيعية لعائق يدخل
عليها لا يوجب ان يكون جميعها بالعرض والاتفاق فقول من قال في
الاشياء ان كونها بالعرض والاتفاق من قبل ان شيا منها ياتي
على خلاف الطبيعة لعرض يعرض له خطا وخطل فان قالوا ولم صار
مثل هذا يحدث في الاشياء قيل لهم ليعلم انه ليس كون الاشياء
باضطرار من الطبيعة ولا يمكن ان يكون سواه كما قال قايلون بل هو تقدير
وعمد من خالق حكيم اذ جعل الطبيعة تجري اكثر ذلك على مجرى ومنهاج
معروفا ويزول احيانا عن ذلك لاعراض تعرض لها فيستدل بذلك
على انها متصرفة مدبرة فقيرة الى ابداء الخالق وقدرته في بلوغ
غايتها واتمام عملها تبارك الله احسن الخالقين يا مفضل خذ
ما اتيتك واحفظ ما منحتك وكن لربك من الشاكرين ولالائه
من الحامدين ولاوليائه من المطيعين فقد شرحت لك من الادلة على
والشواهد على صواب التدبير والعمد قليلا من كثير وجزا من كل فتدبره
وفكر فيه واعتبر به فقلت بمعونتك يا مولاي اقوى على ذلك وابلغه
ان شاء الله فوضع يده على صدري فقال احفظ بمشية الله ولا تنس
ان شاء الله فخررت مغشيا فلما افقت قال كيف ترى نفسك يا مفضل
فقلت قد استغنيت بمعونة مولاي وتاييده عن الكتاب الذي كتبته
وصار ذلك بين يدي كانما اقراه من كفي فلمولاي الحمد والشكر كما هو
مستحقه فقال يا مفضل فرغ قلبك واجمع اليك ذهنك وعقلك
وطمانينتك فسالقي عليك من علم ملكوت السموات والارض وما
خلق الله بينهما وفيهما من عجايب خلقه واصناف الملئكة وصفوفهم
ومقاماتهم ومراتبهم الى سدرة المنتهى وساير الخلق من الجن والانس

الى الارض

٣٢

الى الارض السابعة السفلى وما تحت الثرى حتى يكون ما وعيته جزءا من اجزاء
انصرف اذا شئت مصاحبا مكلوا فانت منا بالمكان الرفيع وموضعك
من قلوب المومنين موضع الماء من الصدى ولا
تسالن عما وعدتك حتى احدث لك منه ذكرا
قال المفضل فانصرفت من مولاي بما
لم ينصرف احد بمثله والحمد لله
رب العالمين
م